تحريك الساكن

تأملات في الإيمان والإنسان

obeikandl.com

obeikandl.com

تحريك السَّاكن

تأملات في الإيمان والإنسان

أحمد بن صالح بن عبدالله السلطان

العبيكان
Obeikan

obeikandl.com

ⓒ العبيكان، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السلطان، أحمد صالح عبدالله

تحريك الساكن تأملات في الإيمان والإنسان./ أحمد صالح عبدالله السلطان، الرياض؛ ١٤٣٤هـ

٢٣٢ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٣٣١-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١ - المقالات العربية. أ. العنوان.

ديوي ٠٨١ رقم الإيداع: ١٤٣٣/٦٩٧٠

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٠٨٠٩٥ ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٠٨٠٩٥ ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧ ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

www.obeikanretail.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

المحتويات

مقدمة ٩

تأملات في الإيمان

١ الإيمان: نظرة عامة ١٥
٢ بناء الإيمان وموارده ٢٣
٣ الإيمان بين الفطرة والمسؤولية ٤٧
٤ تشغيل الإيمان ٥١
٥ الصلاة ٥٧
٦ الصوم ٧١
٧ رحلة الحج ٧٧
٨ الذكر ٨٧
٩ زمن استباق الخيرات ويوم الفصل ٩٥

تأملات في النفس

١ الحسد ١٠١
٢ تقدير الذات ١٢٣
٣ المنطق ١٣٧
٤ الترف ١٤٩
٥ الضحية ١٥٣

تأملات في المجتمع

١ المسرح الكبير ١٦١
٢ الغيبة ١٦٧
٣ المرأة ١٧١
٤ علاقات المسامحة والمشاحَّة ١٨١
٥ حكومة الأخلاق ١٨٥
٦ العدالة والحرية ١٨٩
٧ قليل من السياسة ١٩٣
٨ الزمن ١٩٧
٩ الربا ولحوم السباع ٢٠٥
١٠ إدارة الفراغ ٢٠٩
١١ الأسعار فلسفة حياة ٢١٣

السعادة ٢١٩
خلاصة الخلاصات ٢٢٩

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله...

كانت نثاراً في مسارب متعددة، فقوي عزمي على جمعها بين دفتي كتاب، أروم فيه تقديم ما ترشح لدي من أفكار مبدئية تجاه قضايا كبرى، وأتجاسر فيه لعرض خلاصة «تأملات ذاتية» في مسائل موضوعية؛ ليختلط الذاتي بالموضوعي، في نهج يقوم على التأمل والتفكر. وإني لا أزعم البتة أنها جديدة تماماً في معالجاتها ونتائجها، ولكنها قد تفلح في استكشاف أكثر لبعض الزوايا في السياقات المغمورة بتلك التأملات. وقد رأيت أن أكثف تأملاتي المكتوبة في سياقات ثلاثة هي: الإيمان، والنفس، والمجتمع.

وسيتضح للقارئ الكريم ـ في أثناء القراءة ـ ما حملني على انتقاء تلك السياقات دون غيرها، مما يغني عن الإفصاح المباشر في مقدمة الكتاب.

ونظراً إلى الطبيعة الثقافية العامة للكتاب، فإنه من المنطقي الابتعاد عن اللغة المتخصصة، خاصة أنني لست بمتخصص في أي من السياقات التي يعالجها الكتاب، هذا الأمر الذي يمنحنا ـ القارئ والكاتب ـ هوامش أكبر كي نتحرك فيها، دون تقيُّد بمنهجية هذا الحقل المعرفي أو ذاك. فنهج التأمل الذي أُسِّس عليه هذا الكتاب يطوّح بي بعيداً عن تخصصي الهندسي، أو وظيفتي الرسمية، وقد كان ذلك مصدراً لسعادة غامرة، في أثناء العمل والإعداد لهذا الكتاب المتواضع. ويُضاف إلى ذلك أنني لم أشأ حشو الكتاب بمراجع كثيرة، حيث لم أشر إلا إلى ما تقتضيه المنهجية العلمية، وذلك في حالات الإفادة المباشرة من مرجع معين، أو الإشارة إليه في أثناء الكتاب.

obeikandl.com

ومـع توخـي قـدر من الحرص عـلى صبـغ الأفـكار بالمنطقية من حيـث ترتيب عرضهـا، لكنـي لم أبالـغ أيضاً في إظهـار تلك المنطقيـة والبرهنة المبـاشرة عليها؛ لأن ذلك يجرنا إلى فخاخ الأطروحات الأكاديمية الصارمة، التي تخرج الكتاب من إطاره الثقافي العام، وما يقتضيه من التحلي بالمرونة والرشاقة في الطرح والمعالجة.

إيماني الشديد بـ«الإيمان» وكونه المقوم الرئيس في حياة الأفراد والشعوب، قادني إلى جعله السياق الأول الذي يعالجه هذا الكتاب المختصر، وهو متبوع بالسياق الثاني: «الفرد»، ثم السـياق الذي يحتوي الفرد، وهو «سـياق المجتمع». ولعلي في ختام هذا التقديم المختصر، أشـير إلى اغتباطي الكبير بما عسـاه يصلني مـن ملاحظات وتقويم وتغذيـة راجعـة من القراء الكرام، مع إزجاء عظيم الشـكر لمـن يكرمني بذلك، ولن أنسـى فضل زمـلاء عملوا معي في كتابة المسـودة، وجهدوا في طـرح الأفكار وإعادة الموضوعات وتنقيحها وترتيبها، وأخص منهم أخي الأستاذ خالد العضاض وكوكبة أخرى أحتفظ بأسمائهم في سويداء القلب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أحمد بن صالح السلطان

بريدة

صفر - ١٤٣٤هـ

obeikandi.com

تأملات في الإيمان

١. الإيمان : نظرة عامة
٢. بناء الإيمان وموارده
٣. الإيمان بين الفطرة والمسؤولية
٤. تشغيل الإيمان
٥. الصلاة
٦. الصوم
٧. رحلة الحج
٨. الذكر
٩. زمن استباق الخيرات ويوم الفصل

obeikandl.com

obeikandl.com

١ الإيمان: نظرة عامة

obeikandl.com

obeikandl.com

الإيمان: نظرة عامة

عنـد تدبر سـلوكنا الاجتماعـي ومنظومة القيم التـي تحكم تفكيرنـا تتضح لك إحدى أهم المشكلات التي تواجهنا اليوم على مستوى الفرد والجماعة والوطن والأمة هي مشـكلة ترتيب الأولويات، ويظهر ذلك بجلاء في الخطاب الديني، وفي السـلوك الاجتماعي، وفي القرارات الإدارية، وفي إنفاق الموارد على جميع المستويات.

ومـن أبسـط الأمثلة عـلى ذلك فوضى الإنفـاق عند الأفراد، فقد تمر بسـيارتك عـلى أحد المحالّ، وتشـتري لأطفالك مثلجات بخمسـين ريالاً دون مناقشـة، ثم تمر على صيدلية لتشـتري لهم فُرش أسنان، وتبحث عن أرخص الأنواع، وتجادل في سعر بضاعة مسـؤولة عن صحة فم الإنسـان وأسـنانه ولثته، وقد تنفق في مناسبة عابرة لا داعي لها ألفي ريال، وتنام طول عمرك على مرتبة رخيصة الثمن تسبب لك تشوهات في الظهر وآلاماً في المفاصل.

وفي الجانـب الدينـي، وهو الأهم نعاني كثيراً من هذه المسـألة، بل أحياناً يرفض بعـض الوعـاظ مبـدأ الأولويات من أساسـه على الرغـم من إيمانهم بوجـود الفرض والواجب والسـنة ووجود آيات أولى من آيات في سـياقات معينة، وأنبياء أفضل من أنبيـاء، وهذا الموقف ينطلق من باب أن ليس في الدين قشـور ولب، وينتهي الأمر إلى أفئدة محشوة بالمتون وشروح المتون وبتفاصيل التفاصيل، ونشرات تلاحق الإنسان في كل مكان، تفصِّل حالات سـجود السـهو، وتحليق الأصابع، والافتراش في التشهد، وأنواع الإسبال مع الوسائل الإيضاحية بالصور عند أبواب المساجد والمكاتب.

obeikandl.com

وعندما نذكر ذلك، فغنيٌّ عن القول: إن على كل مسـلم واجباً بأن يحترم السـنة المطهرة قولاً وفعلاً وتقريراً، ولكن - وهنا تكمن المشكلة - لا بد من أن نعرف أن في أذهاننا فراغاً محسـوباً وحيزاً محدوداً إذا عظمنا عنده الصغائر والتفاصيل، فلن يتوافر فيه مكان للإدراك التلقائي[1] للمقاصد الكبرى للدين.

إن المعايشـة الواعية للسـيرة النبوية في عهدها المكي والمدني، مدرسـة مسـتمرة لترتيـب الأولويـات. تأملـوا نهي الرسـول ﷺ عن كتابـة الحديث النبـوي، وعنايته العظيمـة ﷺ بكتابـة القـرآن العظيـم وحفظـه بوصفـه مـؤشراً واضحاً عـلى ترتيب الأولويات بين النص القرآني والحديث النبوي.

المحزن أننا لم نستطع فهم هذا التمييز العظيم بين القرآن الكريم والسنة المطهرة، بـل إن الدارس في كتب الأصول يعجب لطريقة اسـتنباط الأحكام وقواعدها، حتى وصـل الأمـر ببعضهم إلى تقرير أن السـنة قاضية على القرآن، بـل إن بعض أصحاب النيات الحسـنة، يسـتعملون مصطلحـاً بدعيًّا، وذلـك بالتعبير عن القرآن والسـنة بـ (الوحيـين)، وهـو في نظري تطرف جـاء رد فعل على القرآنيين الذيـن يزعمون كفاية النـص القـرآني، لكن عندما يرد نص قرآني قاطع في أمر مـن الأمور، فإن من الداعي للتسـاؤل لجوء بعـض الفقهاء إلى تفريغه من معناه مسـتندين عـلى بعض الأحاديث، متوسلين بتخصيص العام وتقييد المطلق، وما سواهما من قواعد وضعية.

وأوضـح مثال على ذلك أننا نقـرأ في القرآن العظيم هـذا التوجيه الرباني قطعي الثبـوت وقطعي الدلالـة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. ومـع ذلـك مـازال بعض المسـلمين يقـرأ الفاتحة، والإمـام يقرأ في الصـلاة الجهريـة، اسـتناداً إلى فتوى تحيل إلى حديـث نبوي، ألا يحتاج هـذا الأمر إلى إعادة نظر؟!

(١) نقصد به الإدراك اللاواعي بحسب تقسيم علماء النفس الذين قسموا عملية التعلم إلى أربع مراتب، هي: اللاشعور وعدم القدرة، ثم الشعور مع عدم القدرة، ثم الشعور والقدرة، ثم أعلى المراتب اللاشعور مع القدرة.

obeikandi.com

ونتذكـر هنـا أن الرسـول ﷺ لم يكـن يشـجع عـلى الأسـئلة التفصيليـة وكثـرة الاسـتفتاءات، ففـي صحيـح مسـلم عن أبي هريـرة رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: «**إن الله يـرضى لكـم ثلاثـاً، ويكـره لكم ثلاثاً، فـيرضى لكم أن تعبـدوه، ولا تشركوا به شـيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السـؤال وإضاعـة المـال**»، ويكفـي أن نعلـم إن الاسـتفتاء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ والسـؤال بعمومـه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ قد ورد في القرآن الحكيم فقط في آيات محدودة لا تتجاوز خمس عشرة آية. يقول الدكتور خالد السلطان، مدير جامعة الملك فهد للبترول والمعادن:

> «**إن كثرة الأسـئلة والاستفسـارات تؤثر في قدرة عقل الإنسـان عـلى فهم التصـور العـام للشيء، نتيجـة الانغـماس في التفاصيـل. وإن الإسراف في السـؤال يكرس ثقافـة التبعية، ويؤثر في سـلَّم الأولويات**».

ولعل كثيراً منا قد لاحظ أن بعض الشـباب المبالغ في التفاصيل فقد الإحسـاس بالمقاصد العظمى للدين، وتاريخنا الماضي والحاضر مليء بالأمثلة.

وعندمـا نبحث هذا الأمر سـنجد أن الخلل في ترتيـب الأولويات عندنا يتضح في أجلى صوره في قضية الإيمان، فهذه القضية الأسـاس الكبرى لم تنل ما تسـتحقه في خطابنا الديني ومناهجنا المدرسـية وتربيتنا، ومن ثم لم تأخذ مكانها في منظومة القيم، ولم تظهر على السلوك، ومن ثم لم نستفد من مردودها العظيم، وشَغلنا عنها في الجانب التعليمي ما يسمى مباحث العقيدة، حيث انشغل علماء العقيدة في التاريخ الإسلامي وبالـذات المدافعين عـما يعتقدونه التصور السـليم للـذات الإلهيـة، وأنفقوا جهدهم ووقتهم في جدل لا ينتهي مع من يسـمونهم «الفرق الضالة» (يلاحظ هنا أن كل فرقة تعتقد أنها على الحق، وأن غيرها فرق ضالة قليلاً أو كثيراً).

obeikandl.com

ولأن مصادر الإنسان من وقت وجهد وقدرات عقلية محدودة، فقد قَّل إنتاجهم الفكري جداً في موضوع الأثر الذي يجب أن يحدثه الإيمان في الإنسان.

ومثال بسيط على ذلك أنه يعلم كل مطلع على كتب العقائد حجم الجدل الطويل الرهيب حول تأويل الصفات، حيث قسم الأمة، واستنزف طاقات العلماء، وشحن النفوس دون الوصول إلى نتيجة.

هل استفادت الأمة خلال قرون طويلة ومجلدات هائلة من هذا الجدل، أعتقد أن الجواب على النقيض، بل تشرذمت، وشحنت النفوس، وضاع الجهد، وفقد الطرفان التركيز على الغاية.

فإن كانت إحدى عجائزنا لا تستطيع أن تتصور أي شيء فوق المادة نهائيًّا وفهمت العلو والعرش والاستواء واليد والعين بما يستطيع إدراكها فهمه، ولكن إيمانها هذا يمنعها عن ارتكاب المحرمات، ويساعدها على فعل المندوبات، والالتزام بأهداب الشريعة، ويمنحها توكلاً، ويعطيها سكينة وهدوءاً عند المصائب والأقدار، فهل من المفيد أن نتجادل مع هذه العجوز عن مسائل طبيعة الوجود وتوحيد الأسماء والصفات؟

وفي المقابل إن كان أحد المفكرين أو علماء الفلك ينزه المولى - عز وجل- عن أي تجسيم أو تشبيه حتى في اللفظ، ويعرف أن الاتجاهات في الكون ليس لها معنى إطلاقاً، فالإصبع التي تشير إلى الأعلى في الرياض تشير إلى عكس الاتجاه في جنوب البرازيل، وثلث الليل الأخير مستمر لا ينقطع، فهو يحتاج إلى التأويل؛ ليحقق التوافق بين عقله وإيمانه، ولكن إيمانه بالله - عز وجل - بهذه الصورة أحدث المطلوب من تعظيم الرب ومحبة رسوله وفعل المأمورات وترك المحرمات وتقوى الله والجهاد في سبيله، فهل نقاتله على هذا التصور؟

عند استعراض أدبيات العقيدة في التراث الإسلامي، وحتى في المؤلفات الجديدة يحزن الإنسان كثيراً أن الأمة انشغلت عن الغاية بالوسيلة، وجعلت محل الخلاف طاغياً على محل الاتفاق.

نعـود إلى قضيتنا الأسـاس، وهي بناء الإيمان الذي هو أولى أولويات الإنسـان وسـفينة نجاته، إن بناء الإيمان يشـبه بناء منزل وسـكناه وصيانته في هذه الحياة، وعلى قـدر عزيمة الإنسـان وعلى قدر جهاده سـيحدد نوع المنزل الذي يسـكنه، إن بإمكان المؤمـن أن يعيش سـعادة لا تتحقق لأي سـاكن قصر على وجـه الأرض، أمان ورضا واستقبال للأحداث والطوارئ بنفس رضية مستقرة ومواءمة مع الكون والنفس.

في تصـوري أن مـن يعيش عـلى هذه الأرض دون إيمان أشـبه بمـن يعيش دون منـزل عـلى المسـتوى المادي. تخيـل إنسـاناً دون مـأوى، لا بيت ولا كـوخ، ولا حتى خيمـة، وليـس في منطقة خالية من البشر، بل هو في وسـط الناس، أي حياة سـتكون مـن نصيبه؟ برد ومطر أو حر وشـمس وغبار ووحشـة وابتـذال... إلخ، لا أعتقد أن بالإمكان تصور مثل هذه الحياة.

قد يجد القارئ الكريم في هذا الكتاب ما يسـاعد على بناء الإيمان وصيانته وعلى أقـل تقديـر، فحسـبي أن يذكره بأهميـة الموضوع، فيشرع يسـتخدم مـا أعطاه الله من آليات وموارد (كون ـ عقل ـ وحي.. إلخ) في بناء إيمانه بشـكل راسـخ وصيانته على الدوام؛ حتى يستمتع بثمراته اليانعة.

تأمل:

تدبـروا قـول الـرب - عـز وجـل - في سـورة الأنفـال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

إذن المؤمن الحق هو مجموعة أعمال، وليس تصوراً مجرداً.

obeikandl.com

٢ بناء الإيمان وموارده

obeikandl.com

obeikandl.com

بناء الإيمان وموارده

تاريخ البشرية يظهر أن الإيمان بالخالق الملك المدبر الحي القيوم فطرة مغروسة في كل كائن بشري، فإنكار وجود الرب – عز وجل– هو الاستثناء في السلوك البشري، بل احتاج ذلك إلى مكابدة كبيرة من أهل الإلحاد وعناء ما بعده عناء، ولم تفلح حتى محاولات الإلحاد (الرسمي) التي تدعمها الدولة (كما في تجربة الاتحاد السوفيتي) في تحقيق أي نجاح لمشروع إنكار وجود الله، والمثير للبحث أن مسألة وجود الرب – عز وجل– لم تكن قضية القرآن الكبرى، بل يؤكد القرآن أن هذه القضية لم تكن موضع الخلاف الأهم بين البشر.

وفي اعتقادي أن هناك ثلاثة موارد رئيسة يستخدمها أي إنسان لبناء إيمانه، هي:

أ– الكون. ب– العقل. جـ– الوحي.

ولكل واحد منها وظيفة محدد، ولايستطيع أحدها أن يؤدي دوره دون الآخر، فإذا تلقى الوحي إنسان دون عقل فلا فائدة ترجى، والكون والعقل دون وحي قد يقودان إلى حياة بدائية مليئة بالخرافة، والوحي والعقل يحتاجان إلى ميدان "الكون" لاستنباط البراهين والممارسة العملية، وقد تكفل الوحي بتعريف البشر على الاسم الذي يدعون به هذا الرب الخالق وهو (الله) في الدين الخاتم، ومن ثم تعريفهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا؛ حتى يتمكنوا من تحقيق عبوديته في هذه الحياة، والعقل هو مناط التكليف والآلة التي يستخدمها الإنسان للاختيار بين البدائل، ويوفر الكون لمن تدبره أدلة لا حصر لها، تتضافر لتشهد على وجود خالق مدبر حي قيوم وعلى كمال شريعته وتحقيقها لمصالح البشرية العليا.

obeikandi.com

١-٢ الكون

يبدو أن مظاهر الكون من حول الإنسـان من لحظة وجوده على كوكب الأرض قد شـغلت تفكيره، واسـتفزت تأمله الطويل. فنظام الكون الذي نسـتطيع مشاهدته يدعـو إلى الإعجاب الكبير والدهشـة العظيمة، وقد بـدأت التأملات البشرية للكون في وقـت مـا قبل الحضارة، وتدل عليها الرسـوم والنقوش القديمة التي اكتشـفت في السنوات الأخيرة، ولكن أول ما وصلنا مكتوباً عن هذه التأملات الجادة كان التراث اليونـاني، ويعتقد أن «بطليموس»، هو أول من وضع تصوراً مكتوباً عن نظام الكون أودعه في كتابه «المجسـطي» الذي يحمل اسـمه العربي إلى اليـوم، وفي عالم بطليموس تكـون الأرض هـي مركز الكون، والشـمس والقمـر والنجوم تدور حولهـا، وتعزز المشـاهدة اليوميـة هذا التصـور، ومن ثم فقد ظـل مهيمناً على التفكـير البشري قرابة ألفي عام يدعمه اعتقاد خاطئ من الكنيسـة أن الأرض يجب أن تكون مركز الكون، وخلاف ذلك هو كفر وهرطقة.

ثم تسلّمت الحضارة العربية والإسلامية القيادة العلمية للعالم، ووفرت قاعدة عظيمة من التأملات والبحوث التي أعانت أوروبا على نهضتها الحديثة.

ومن داخل المؤسسـة الكنسـية نفسـها ظهر البولندي «كوبرنيكـوس» في القرن الخامس عشر ليقلب هذا المفهوم رأساً على عقب، ويفترض نظاماً تكون الشمس فيه هي المركز والأرض تدور حولها مع بقية الكواكب.

تسبب هذا الطرح في صراع رهيب في أوروبا، ولكنه كان إحدى الشرارات التي أشـعلت النهضة الأوروبية الحديثة، ليس فقط في أثره الفلكي، وإنما في أثره الفلسـفي العميـق، فـكان هذا التصور الجديد يقول: إن اعتقاد النـاس الطويل بأمر ما، ودلائل الحواس المباشرة لا يعني بالضرورة موافقة الحقيقة.

وتوالت الأرصاد والحسابات التي تؤيد تصور كوبرنيكوس، ومنها ترسخ فكر جديد يدعو إلى التثبت من المسلمات الوثوقية التي ربما تكون أبعد شيء عن الحقيقة.

وبعد ذلك بعقود قليلة وبالعقلية نفسها فاجأ «جاليليو» إيطاليا وأوروبا كلها بتصور جديد عن الحركة والسكون، فقد ظل العالم ألفي عام أسيراً لنظرة أرسطو التي كانت تقول: إن الأجسام تبقى ساكنة حتى تأتي قوة تؤثر فيها (تحركها)، وهي فكرة يدعمها الحس المباشر، وكانت هيبة أرسطو تمنع من توجيه النقد له، وهذه الهيبة لم تكن في أوروبا وحدها، بل كانت في العالم الإسلامي بشكل أكبر، فقد كان يسمى في المشرق الإسلامي المعلم الأول، أما في الحضارة الأندلسية، فقد قال فيه الفقيه والفيلسوف ابن رشد الحفيد كلاماً يخجل المرء من إيراده.

وفجأة قلب جاليليو الطاولة على أرسطو وبضربة عبقرية غيَّر جاليليو عبارة أرسطو إلى الآتي:

(تبقى الأجسام على حالها متحركة بانتظام أو ساكنة، حتى تأتي قوة تؤثر فيها) وعندما سأله المدهوشون من هذه الفكرة: (ما الذي يحرك الساكن؟ أجاب ما الذي يوقفه؟!).

قد يجد بعضنا صعوبة في إدراك الفرق بين عبارتي أرسطو وجاليليو، ولكن مؤرخي العلوم يعدّون التصور الجديد للحركة والسكون من أهم مسببات وثبة العلم الحديث.

دعم جاليليو نظريته، ببحوث، وتجارب كثيرة، ويوم وفاته ولد في إنجلترا، «إسحاق نيوتن» (١٦٤٢م) ليترجم فكر جاليليو بعبقرية فذة بما يسمى قوانين الحركة

التـي تفسر نظـام الحركة في الكون، وقـد تنبأ بمواقع الكواكب وسرعاتها، واسـتطاع أن يحسـب مواقـع سـقوط القذائف وحركـة المركبات، وصـاغ المعـادلات الرياضية لهذه الحركة.

وقبـل وفـاة نيوتن بـدأت تتوالى الدراسـات والبحوث التي تشـكك في تصوره لعلاقـات الأجسـام في الكـون ودقـة المعـادلات، وخصوصـاً من كل مـن «بيركلي» و«ليبنز» وهو في السبعين من عمره، فكتب هذا المقطع في نهاية كتابه العظيم (المبادئ):

(يتمجد اسـم الله الأعظم الأبـدي ذو البهاء المطلق، هو الأبدي اللانهائي القادر على كل شيء، العالم بكل شيء يصـل وجـوده الأبـد بالأبـد، وبقاؤه يـدوم من العدم إلى العدم، حاكم على كل شيء، عالم بكل شيء كان أو سـيكون هو ليس أبديًّـا، وغير محدود، بل هو الأبديـة واللاحدود، وهو ليس البقـاء والوجود، بل هـو الحاضر، وكل زمان، الباقي إلى الأبد، الحاضر في كل مكان وبوجوده الدائم في كل مكان ينشـأ الزمان والمـكان... الله لايكـترث بحركة الأجسـام، فلا تجد مقاومة من قدرة الله الحاضر في كل شيء).

هـذه إذاً النتيجة التي وصل إليها إسـحاق نيوتن أحد أعظـم علماء الطبيعة على مـر القرون، عندما شـارفت حياته عـلى النهاية، ووصلت حكمتـه وخبرته إلى أقصى مداها ونضجها.

توالـت الضربـات على نظريـة نيوتن عن الحركـة والجاذبيـة، وبخاصة بحوث الكهرومغناطيسـية التي أبدعها فراداي وماكسويل، ولم تستطع النظرية تفسير بعض الظواهر الحاسمة في الطبيعة.

obeikandl.com

وانطلاقاً من إيمان عميق بجمال الكون قاد «آينشتاين» العلماء إلى النسبية الخاصة ثم العامة، ويصعب على أي إنسـان غير متخصـص أن يفهم أسرار النظريتين، ولكنه يمكـن صياغة الرؤية الفلسـفية لهما بـأن العلاقة بين الأجزاء في الكون ليسـت علاقة قـوة كـما تصورها فيزياء نيوتـن، وإنما تصميم هنـدسي فائق الجمال في أبعـاد الزمكان (الزمان ــ المكان) وأن الزمان والمكان ليسا مطلقين، وإنما يعتمدان على موقع الراصد (نسبيان) وأن المادة والطاقة ليسا سوى وجهين لعملة واحدة. المهم أن تصميم الكون بدأ يظهر بشكل أجمل وأبسط مما كان عليه في عالم نيوتن.

والداعـي للتأمـل أنـه بعـد بحوث آينشـتاين وعلماء عـصره يمكـن أن نرى أن الفـارق بين عالمي بطليموس وكوبرنيكوس هـو فرق في الاصطلاح، فالحركة المطلقة غـير قابلـة للرصد في هذا الكون ولا فرق حقيقي بين أن تقول: إن الكوكب «أ» يدور حول الكوكب «ب» أو العكس.

ومـن المتوقـع أن يظهر علـماء يضيفـون إلى نظرية آينشـتاين، أو يعدلون أجزاء منها، أو ينسـفون فرضياتها «وقد حدث ذلك فعلاً» ويطرحون تصوراً جديداً، يفسر الكون بطريقة أبسط وأفضل وأنفع.

إذاً، فالكـون مخلوق من مدبر أعلى قادر حكيم حي قيوم، حارت العقول في كشـف أسرار بديع صنعه، غير أنها تصل إلى نتيجة حاسمة هي الإيمان بوجوده وحكمته عزوجل.

عندما نتحدث عن بناء الإيمان عن طريق تدبر الكون، فإن المثال الأعلى والقدوة لكل إنسان على هذه الأرض هو إبراهيم الخليل عليه السلام.

يقص علينا القرآن العظيم طريقة إبراهيم في معرفة ربه بتدبره للكون من حوله. وسواء كان هذا التدبر على سبيل المحاجَّة والإيضاح لقومه أم كان على سبيل البحث عـن الحقيقـة، فقـد توصل عليه السلام (أو أثبت) نتيجـة قطعية هي أن ما يغيـب (أو يأفل) بحسب التعبير القرآني لا يستحق أن يكون إلهاً.

وبذلك، فإن الخليل عليه السلام هو أبو المؤمنين في كل زمان ومكان، حيث حنف أي مـال عن الـشرك إلى الإيمان والتوحيد، ونقل التصور البشري للإله من التشـخيص إلى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

تأمـل، يمتـدح القرآن الكريـم حنيفية إبراهيـم عليه السلام، ويصفه بأنـه كان حنيفاً، وأصـل الحنف هو حدب السـاق، ألا يثير الدهشـة أن علماء الفيزيـاء الآن وبفتح من آينشتاين قد وصلوا إلى نتيجة مؤداها أن الكون كله أحدب.

إلى أين يقود هذا الحدب؟

obeikandl.com

٢-٢ العقل

سئل أعرابي: بِمَ عرفت ربك؟

فقال: بنقضه للعزائم.

لاحـظ هـذا الأعرابي بفطرتـه السـليمة أن عزائم الخلق تجتمع عـلى أمر ما، ولا يسـتطيعون إدراكـه، بحيث تنقض عزائمهم، فاسـتنتج عقله وجـود إرادة عليا وقوة عظمى مهيمنة على إرادة الخلق.

وقـد تضافرت شـواهد العلـم الحديث عـلى أدلة لا تنتهـي (باسـتخدام العقل والكون) على وجود الرب العظيم - عز وجل-، وهناك قائمة طويلة من الكتب هذا هدفها، يمكن لمن يرون تدعيم إيمانه أن يستفيد منها.

إن إنكار وجود الله يتطلب هوى غالباً، ويضرب د. علي عزت بيجوفيتش مثالاً على ذلك، فيقول:

«إن علـماء الآثـار عندمـا يعثـرون على تحفـة فنية مطمورة تبدأ أسـئلتهم عن العـصر الذي عملت فيه، ومن أبدعها، وكيف حفظت إلى هذا التاريخ، إلى آخر هذه الأسـئلة، أما عندما يعثر على جمجمة بشرية بديعة الصنع هائلة الأسرار، فإن الإجابة تأتي هكذا: «إن الطبيعة خلقتها» ثم يتسـاءل رحمه الله: أليس في إنكار الإنسـان لوجود الله هوى بيِّن؟!».

ومثلـه ذهب الشـيخ محمد متولي الشـعراوي - رحمـه الله - إلى ضرب المثـل بالمصباح الكهربائي، إذ يقول:

obeikandl.com

«إن الناس تحفظ اسـم مخـترع المصباح الكهربائي وصانعـه الأول، وتقيم له التكريـم تلو التكريم، أمـا الشـمس التي تشرق عـلى كل الكـون لتنيره دون حاجـة إلى صيانة أو تبديـل، فنادراً ما نتفكر في مبدعها عزوجل».

جفري لانغ:

يتبـع المغلوب دين الغالب، هذه فكرة أثارها ابن خلدون، وقد تأتي بصيغة أعم بـأن المغلـوب يتبع ثقافة الغالب، ومنذ خمسـة قرون وكفة الـصراع على هذه الأرض تميـل لمصلحـة الغـرب المادي النـصراني، ومنذ قـرن انتصر الغـرب انتصاراً حاسـماً، وهيمن على مجريات الحياة بشكل قد لا يكون مسبوقاً، أما في العقود الثلاثة الأخيرة، فقد انفرد تماماً بقيادة البشرية.

وأمـا المسـلمون فهـم الآن في تخلف رهيـب في جميع مناحي حياتهم السياسـية والاقتصادية والعلمية، بل حتى في منظومة القيم الجمعية، غير أن المتأمل لحال التحول في الأديان يدهشه هذا الكم الكبير من أعلام الغرب وبسطائهم الذين يشهرون إسلامهم.

وقد اخترت مثالاً واحداً هو الدكتور جفري لانغ الأمريكي الأصل والولادة والمنشأ، وهو ليس حالة فردية، بل تيار عام لا تنقطع روافده.

وقـد ألـف الدكتور جفري لانغ كتاباً يسـتعرض فيه طريقه إلى الإسـلام أسـماه (struggling to surrender) ترجمـه الدكتور منـذر العبسي تحت عنوان: «الصراع مـن أجل الإيمان»، وقد يكـون العنوان الأقرب إلى الترجمـة الصحيحة هو: «الصراع من أجل التسليم»، ولا يخفى على من يعرف اللغة الإنجليزية جمال العنوان الذي ينم ظاهره عن التناقض، فكيف يصارع الإنسان من أجل أن يستسلم؟

والدكتور جفري لانغ أستاذ الرياضيات بذل مجهوداً كبيراً في البحث عن الحقيقة، حتى قرر اعتناق الإسـلام، ويقول عن القرآن الذي كان السـبب في إسلامه ما نصه:

«القـرآن في رأي كثـير من المسـلمين واجه تحدي الغرب، وارتفع فوقه وإن القرآن هو القوة الدافعة وراء الصحوة الإسلامية العالمية، ولايزال القرآن نحو بليون مؤمن هو البيان الأمثل لفضل الله على البشر والحكمة العليا وجمال التعبير الأسمى».

ثم يستشـهد بكلمة لمحمد أسـد، وهو كما تعلمون مسلم نمساوي تحول عن اليهودية إلى الإسلام:

«إنه كلمة الله».

من أجمل ما في كتاب الدكتور جفري لانغ شجاعته في مواجهة شبهات تُثار عن حياة الرسـول ﷺ وعن الحديث النبوي وعن المرأة في الإسـلام، بمعنى أن إسلامه لم يكن بادي رأي، بل عن تروٍّ ودراسة.

وأمثال الدكتور جفري لانغ كثيرون جداً، بل إن موكب مؤمني الغرب لم ينقطع على الرغم من حملات التشويه التي يقودها متعصبون، وما يلقونه من دعم من الجهات ذات المصالح الاقتصادية والسياسية، يعضد لها آلة إعلامية رهيبة مؤثرة، إضافة إلى ما يوفره جهلة المسلمين وغلاتهم من فرص للنيل من هذا الدين والتشكيك فيه.

حتـى رحلـة الحـج في صورته الراهنة، كما يعلم أي إنسـان أدى مناسـك الحج مليئة بالصعوبات التي سـتفتح أبواب الشيطان أمام أي مسلم جديد، ولكننا نجد أن مسلمي الغرب رجالاً ونساءً يرجعون من حجهم أقوى إيماناً وأشد تسليماً، من جراء تعاملهم الفكري المعمق مع أسرار الحج وغاياته.

obeikandl.com

إن مسـألة تحول غربيين كثر إلى الدين الإسـلامي مسـألة جديرة بالتبصر، فهذا الديـن ليـس عادة شرقيـة أو نادياً للمتعـة أو رياضة روحية، فالاسـتحقاقات المترتبة عـلى اعتناقه كبيرة جداً، بل تنطوي على تغيير شـامل في حياة الإنسـان، وتعيد ترتيب أولوياتـه وإدارة وقتـه، وتعيد تنظيم علاقاته، وتتطلب هـذه الخطوة الكبرى (اعتناق الدين الإسـلامي) تضحيات جسـيمة لا يقـدم عليها إلا من عرف الحـق، وإلا فإننا نعلـم جميعـاً أن العالم الغـربي يبحث كثيراً عن أديان الشـعوب الأخـرى ومعتقداتها، ونسمع عن بعض من أصبح بوذياً أو كنفوشيوسياً أو غيره.

يتسـاءل برنارد لويس، وهو أحد أكبر المسـتشرقين في هذا القرن مقرراً أن شـيئاً ما في الثقافة الإسـلامية يغرس في نفوس معتنقي الإسـلام اعتزازاً وثقة بالتفوق على الآخريـن، وقـد أصاب هنا كبد الحقيقة، غـير أنه يحار في الأسـباب، ونحن نعتقد أن سـبب هذا الشـعور هو موافقة الحق والفطرة؛ لأنه لا يوجـد أي شيء آخر يبعث على الاستعلاء بحدوده المقبولة مثل اتباع الحق بدعم من الفطرة.

ديكارت:

يعتقـد مالـك بن نبي المفكر الجزائري أن ديكارت هو أحد أكبر مؤسـسي الفكر الأوروبي الحديث، وهناك شـبه إجماع على أن مكانة ديكارت بوصفه مؤسسـاً للعقل الأوروبي أو أحد رواد تشـكيل العقلية الأوروبية الحديثة لا يعدلها مكانة، وقد شـغل ديكارت نفسـه في بداية حياته بقانون الشـك، إذ بدأ شـاكًّا في وجوده، ثم نهج طريقاً رياضيًّا ليثبت أنه موجود، وأطلق عبارته المدوية:

«أنا أفكر إذاً أنا موجود».

التي غالباً ما تفهم خطأً، بأن التفكير هو غاية الوجود، في حين مقصود ديكارت هـو أن التفكير برهان على الوجود، وبعد أن أثبت وجود نفسـه، وأن وجوده حقيقة، وليـس وهمـاً انطلق إلى إثبـات وجود الله -عز وجل- وبدأ يبرهـن على ذلك ببراهين متعددة في كتابه مبادئ الفلسـفة، وهـذه البراهين ترتكز في معظمها على فكرة واجب

الوجـود المشـهورة عند المتكلمين الإسـلاميين، غير أن ديكارت قـد أورد عدداً كبيراً مـن البراهـين على وجود الرب -عز وجل- وهناك كثير من الكتب التي تتحدث عن فلسـفة ديكارت، وفي سلسـلة نوابغ الفكر الغربي ألف الدكتور «نجيب بلدي» كتاباً عن ديكارت نشرته دار المعارف بمصر.

ومن ثم، فإن كل الطرق التي سلكتها البشرية، سواء بالفطرة المباشرة أو العقلية العلمية أو التأملات الصوفية أو التبصر الفلسـفي قد أدت بالجميع إلى نتيجة واحدة، وهي وجود الرب -عز وجل- الحي القيوم ذي الكمال المطلق.

النية:

تتوارث الثقافات البشرية مسلَّمة تقول:

إن أصحاب النيات الحسـنة ينجحون في الوصول إلى أهدافهم، هذه المسـلَّمة لم تـأتِ من فراغ، وإنما أصّلتها ممارسـة وتجارب وشـواهد كثيرة، ولـو كانت حكراً على ثقافة معينة أو شـعب بعينه لقلنا: قد تكون وهماً، لكنها قاسـم مشـترك بين شـعوب الأرض، وما من كتاب يتحدث عن تطوير الذات إلا يعرج على أهمية صلاح النية.

وهل ينجح ذوو النيات الحسـنة لأن هناك انسـجاماً بين مـا يظهرونه وبرامجهم الذهنية؟ هذا ممكن!

ولكنه يمكن الاسـتفادة من هذه الحقيقة (التي أصبحت مسـلَّمة لدى شـعوب الأرض) في تعزيز الإيمان بالله -عز وجل-.

إن النية قد تكون أحد مصادر تعزيز الإيمان، تدبر هذه الحقيقة، يستثمر شخصان المصادرنفسـها (مواهب، مال، جهد) للوصول إلى نتائج معينة يوفق أحدهما بشـكل كبير، ويخفق الآخر، والفرق بينهما كان في النيات فقط، ألا يدل هذا على وجود فاعل أعظم، عليم خبير؟

إن تدبر أثر النية لا يقود فقط إلى بذل الجهد في إصلاحها، وإنما أيضاً يعزز الإيمان.

obeikandl.com

■ ٢-٣ القرآن

القرآن الكريم هو المصدر الأول الذي يمكن للعقل البشري استخدامه لبناء مشروع إيمانه وصيانته، وهذه أمثلة لبعض التأملات الجديرة بالتدبر:

• **إجماع حول القرآن:**

في أمـة تختلـف عـلى كل شيء، وخصوصـاً في أمـور الدين! كيف تـم الاتفاق عـلى هذا الكتاب مـن أوله إلى آخره بنفـس ترتيب السـور، وترتيب الآيات؟ ألا يثير ذلك دهشـتنا؟ إن أي مسـلم يؤدي الصلاة في أي مسـجد أو بقعة من بقاع المعمورة إسلامية كانت أو غير إسلامية يقرأ هذا الكتاب، ولا يجد فيه ما يزيد أو ينقص عما يقرؤه أي مسلم آخر في أي مكان كان. إن أي متأمل في هذه الحقيقـة الكبرى سـتتملكه حيرة عظيمة، خصوصاً في أمـة أمية كالأمة العربية لم يتوافـر لديهـا صناعة إنتـاج الكتب أو السـجلات، ولكن جواب الدهشـة، والحيرة يأتي من القرآن نفسه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ سبحان الله العظيم، حيث استخدم صحابة رسول الله ﷺ لهذه المهمة، والله غالب على أمره، ولعل السـنة النبوية في اختلاف رواياتها وانتشـار الوضع فيها واختلاف الفرق الإسـلامية حولها ما يؤكد تميز القرآن وحده بالحفظ الإلهي. وبالمناسبة، فـإن الحديث عن وجود مصاحف أخرى عند بعض الفرق الإسـلامية مختلفة عـن المصحف الذي بين أيدينا الآن هو محض افتراء لا أسـاس له من الصحة، ويوجد متطرفون عند كل الفرق يدعون أن الفرقة الأخرى تزعم وجود نقص أو زيادة في القرآن، بمعنى أن فكرة وجود مصحف مختلف اخترعت للنيل من الآخر، وليس لدعوى امتلاك الحقيقة.

obeikandi.com

• هامان:

نقرأ في القرآن عن رجل يسـمى «هامـان» ويظهر من القصص القرآني أنه كان أحد مسـاعدي فرعون مصر في أثناء بعثة موسـى عليه السلام، وحتى نصل إلى سبب إدراجه ضمن سياق هذا الكتاب دعونا نستعرض بعض الحقائق:

أولاً: لم يرد ذكر لهامان في أي كتاب سماوي أو أثر تاريخي معروف.

ثانياً: اللغة الهيروغليفية ظلت طلاسم مجهولة، حتى القرن التاسع عشر عندما تمكن عالم المصريات الفرنسي «شـامبليون» من فك رموزها عند عثوره على ما يسمى حجر رشيد، وهو حجر يحمل نصين: الأعلى منهما مكتوب باللغة اليونانية وتحته ترجمة باللغة الهيروغليفية (الحجر الأصلي محفوظ بالمتحف البريطاني، وشـاهدت نسـخة منه في المتحف المصري) وبمقابلـة النصـين وبإجراء دراسـات معمقة على الآثـار المصرية تمكن شـامبليون من تطوير ما يمكن تسـميته أبجدية هيروغليفية، سـاعدت علماء المصريات على بناء سجل تاريخي دقيق للأسر الفرعونية الحاكمة، ووجـدوا التشـكيلات الإداريـة لكل حاكـم فرعوني، وعنـد تفحص التشـكيل الوزاري لفرعون مصر في أثناء البعثة الموسوية ظهر لهم اسم هامـان وزيـراً للقلاع والإنشـاءات، وقد ذكر الله العظيـم: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ فمـن أعلـم محمـداً ﷺ باسـم هامـان ووظيفته، التفكير المنطقي السـديد يقود قطعـاً إلى الإجابة التي تنصر الإيمان بالله، وتدعم أركانه.

• مراد هوفمان:

مـراد هوفمان المسـلم الألماني الـذي كان دبلوماسـيًا لألمانيـا في الثمانينيات في المغـرب العـربي أثـارت دهشـته قدرة المسـلمين من غـير العـرب على حفظ

القرآن، أليس محقاً في ذلك؟ تصور أنك تقرأ كتاباً من ست مئة صفحة بلغة غريبة، أي صعوبة تقف أمامك؟ فكيف بحفظ ما قرأت؟ الأمر قريب من المستحيل. أما في الحالة القرآنية فآلاف مؤلفة من المسلمين من الفرس والهنود والملايو والبربر والقبائل الإفريقية يحفظونه عن ظهر قلب دون أن يستطيعوا قراءة سطر واحد من كتاب آخر في اللغة العربية، ألا يثير هذا الأمر دهشة العقول؟! ويعمق الإيمان، الوعد المكتوب في القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

• موريس بوكاي:

أنجز هذا الطبيب الفرنسي رحلة شاقة من البحث العلمي الرصين في الكتب السماوية الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن.

قارن من خلالها نصوص هذه الكتب المتعلقة بتاريخ الكون والإنسان والأحداث التاريخية المهمة، وبعد رحلة علمية رائعة اتضح لهذا الباحث الفرق الجوهري بين القرآن العظيم المحفوظ من التدخل البشري والكتب السماوية الأخرى التي لم تتشرف بالحفظ الإلهي لحكمة أرادها منزلها عز وجل. يختم هذا العالم بحثه الشائق بخاتمة جميلة اخترت للقارئ الكريم نهايتها:

«لا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر بسبب حالة المعارف في عصر محمد ﷺ لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحي من الله، وأن تعطى له مكانة خاصة جدًّا حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه، وحيث

obeikandl.com

إن احتـواءه عـلى المعطيات العلمية المدروسـة في عصرنـا تبدو كأنهـا تتحدى أي تفسـير وضعي، عقيمة حقًّا المحاولات التي تسـعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية».

خاتمـة جميلـة لكتاب رائع وبحث علمي رصين من عقلية فلسـفية اشـتغلت خـارج الإطـار الإسـلامي، ولكن المنهجيـة العلمية المتسـمة بقـدر عالٍ من التجرد والموضوعية قادته إلى تلك النتيجة الباهرة.

• الإعجاز العلمي:

وقع هذا الموضوع ضحية لطرفين: إما مغالين، يتعسـفون كل حقيقة علمية؛ ليبحثـوا لهـا عـن أصـل في القـرآن، وجفاة لا يقبلـون بحث هـذا الموضوع مطلقاً، ولكن المتأمل قد يجد طريقاً في الوسـط، حيث تواجهه آيات واضحة عـن نظريـات علمية أصبحت في حكـم الحقائق، والآيـات دلالاتها قاطعة، وفي اعتقـادي أن أوضح مثال على ذلك هو أطوار خلق الإنسـان التي تتكرر الإشارة إليها في آيات كثيرة وبشكل متسق على الترتيب الآتي:

طين ← نطفة ← علقة ← مضغة ← عظام ← لحم ← خلقاً آخر

وهذه هي المراحل التي أوجدها البحث العلمي الراهن، بل أصبحت بحكم الحقائق، تأتي في القرآن أول مرة في التاريخ البشري، وكشفها علميًّا لم يتحقق إلا في القرن العشرين، هذه واحدة من حالات متعددة تقوم الآن هيئة علمية مستقلة بالتحقق منها ونشرها.

وفي رأيي أنه يجب التعامل مع هذه الأمور بحذر شديد؛ حتى لا نندفع خلف تنظير علمي نضعه حقيقة لا يرقى إليها شـك، ونتعسف تفسير آية؛ لتتماشى معها، ثم يثبت فيما بعد خلاف النظرية، مع أن القرآن العظيم ليس في الواقع في حاجة إلى مثل هذه الاستدلالات، فهو مطلق وغير مفتقر إلى البرهنة.

القرآن والنقد:

كثيراً ما نسمع أن قداسة القرآن في نفوس المؤمنين به تمنعهم من نقده وملاحظة تاريخيته وتناقضاته عـلى حد تعبيرهم، الجزء الأول من هذه العبارة صحيح، فللقرآن في نفوس المؤمنين به قداسة لاتعادلها قداسة، أما النقد والتحليل فقد تصدت له مجموعة من المسـتشرقين وغيرهم، واسـتثمروا جهوداً غير عادية، فما النتيجة التي خرجوا بها؟

لـن أسـتنزف وقت القارئ أو أجـرح ذائقته في اسـتعراض بعض مقولاتهم، وإنما سـأكتفي بعبارة للمفكر المغربي المشهور الدكتور «محمد عابد الجابري»، وهو من تعلمون موسـوعيته واطلاعه على مثـل تلك الجهود، وقد نشر هذه المقالة في مجلة المجلة في العدد ١٤٦٢ وتاريخ ١٧-٢٣/ ٢/ ٢٠٠٨م بعنوان: (القرآن والنقد) وهذا نص العبارة:

«حاول بعض المسـتشرقين العثـور في القرآن على ما يشـبه المعطيات والمتغـيرات التي جعلت النقد التاريخـي لكل من التـوراة والإنجيل مـبرراً، بل ضرورياً، فلم يخرجوا بنتيجة تذكر».

٢-٤ الرسـول

شـخصية الرسـول ﷺ أحـد أهـم مصـادر الإيمان بـالله -عزوجل- وبرسـالة الإسلام الخالدة الخاتمة.

فحياتـه الكريمـة معين لاينضـب للبراهين على صـدق بلاغه، وفي كتب السـير مـا يغنـي عن أي اسـتطراد هنا، وقد تسـببت بعـض الأحداث في حياتـه ﷺ وحتى زمننـا هـذا في إسـلام كثـير مـن النـاس، نتذكـر هنا تلـك المسـتشرقة التي قـرأت أن الرسـول ﷺ عندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أمضى بقية حياته الشريفة دون أي نوع من الحراسة، وهو حق، فلم يكن هناك حراسة على حجرات الرسـول ﷺ في المدينـة، فكان أن اسـتنتجت أنه يمكن للإنسـان أن يكذب على كل الناس إلا على نفسـه ما يقطع بصدق رسـالته، تذكروا أن حياة الرسـول ﷺ لم يكن بهـا أسرار إطلاقاً، فقد نقلت لنا تفاصيل التفاصيل عن حياته الشريفة، وهناك ملمح جميل سمعته من الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- عن مفكر هندي يقول:

« إن أكثـر ما أثار دهشـته هو سـيرة الرسـول ﷺ في سـكنه في حجـرات بالمسـجد يمر عليـه الناس خمس مـرات في اليوم والليلة عـلى الأقل، فالزعماء والأغنيـاء في هـذه الأرض يحرصـون عـلى أن يكـون لهم قصور بعيـدة عن العمـران تتوافر فيها الخصوصيـة؛ حتى يسـتمتع بملذات الدنيـا بعيداً عن الناس، وهو أمر درجت عليه الأمم في ماضيها وحاضرها».

نتذكر هنا أن البيوت الملاصقة للمساجد في أحيائنا الآن تقل أسعارها أليس كذلك؟!

obeikandi.com

كثير من شـانئيه ﷺ قد اسـتغلوا سـيرته للنيل من صدق رسـالته، وقد قرأت، وتدبرت كثيراً من الكتابات عن هذا الأمر، وهي تركز على الغزوات وقتل رجال بني قريظة والسـبي والغنائم وتعدد الزوجات، وخصوصاً الزواج من عائشـة رضي الله عنها في سن مبكرة، أو الزواج من زينب رضي الله عنها.

سأطرح على القارئ الكريم ثلاثة تفسيرات محتملة لهذه المواقف:

التفسير الأول:

أن المنتقد (الشـانئ) يقرأ أحـداث ما قبل ألف وأربع مئة سـنة، بعقلية اليـوم وشرائحه وأعرافـه، والمنطق الحديث والفكر والفلسـفة الغربية الآن تركز على تاريخية الأحداث والتصرفات، وضرورة إسـقاطها على عصرها، وقراءتها في سـياقها الزمني، غير أنهم ينسـون أو يتناسون هذا الأمر عند دراستهم سيرة رسول الإسلام ﷺ .

التفسير الثاني:

يقرأ الغربيون سـيرة الرسول ﷺ وفي مرجعيتهم الفكرية صورة ذهنية عن سـيرة المسـيح عليه السلام (الحقيقية أوالميثيولوجية) والمعلوم أن المسـيح عليه السلام جـاء لغاية محـددة وهدف واضح هو تصحيـح الانحراف في بني إسرائيـل، وجاءت ولادته عليه السلام صدمة روحية هائلة في مجتمع غرق في ماديته، حتى حولوا المعبد إلى مغارة لصوص بحسـب النص الإنجيلي، ولا بـد أن يوضـح المدافعـون عن سـيرة نبـي الإسـلام ﷺ أن حياته ورسـالته تختلف تماماً عن رسـالة أخيه المسـيح عليه السلام فقد جاء محمد بن عبدالله ﷺ ليختم رسـالات السماء، وليطرح مثالاً للكمال البشري في جميع مناحي الحياة.

ما الفائدة لو جاء الرسول الخاتم، ولم يقاتل، ولم تكن له رغبة في النساء (مثل يحيى أو المسيح عليهما السلام) فلم يتزوج، ولم يطلق؟! كيف تستفيد البشرية منه بوصفه قدوة؟

جـاء محمد ﷺ ليكون «دراما بشرية متكاملة»، حزن وسرور، ربح وخسـارة، حصـار وحرب، زواج وطلاق، قضاء ودهاء سـياسي، خطـط حربية، نصر وهزيمة، أصحـاب أوفيـاء وقرابة وآل، وشـانئون محاربـون ومنافقون، خريطـة متكاملة لحياة الإنسان على هذه الأرض.

كثير من الكتابات الغربية الناقدة تغيّب هذه المسـألة المهمة، وتفترض أن يكون النبي مسالماً دفاعيًّا فقط مثالاً للأخلاق السلبية متنازلاً عن كل حقوقه.

التفسير الثالث:

كثـير من الغربيـين فلاسـفة ومفكرين قديـماً وحديثاً لم يغفـروا لأمتنا فوزها بالاختيار لحمل رسـالة الله الأخيرة لبني الإنسان، فلم يتحملوا وصول هذا الشرف لأمة أمية تعيش في الصحراء.

الدارس لموقف الغرب النصراني من الدين الإسـلامي في أول لحظات الالتحام يلاحظ موقفاً شديد العدائية من قبل رجالات الدين على وجه الخصوص، وفي نظري إن أحـد أهـم الاعتداءات التـي تمت على الحقيقـة في التاريخ البـشري حدثت عندما ترجم القساوسـة في أوروبا لفظ الجلالـة «الله» كما ينطق في اللغة العربية «Allah»، ثم راحـوا يوهمـون دهماء أوروبا بأن المسـلمين «العرب» يعبدون إلهاً اسـمه الله غير رب موسـى وعيسى عليهما السـلام، ومعلوم أن السـواد الأعظم من جيوش الأوروبيين في الحمـلات الصليبيـة تم تهييجها؛ لتخليص الأماكن المقدسـة مـن الكفار الوثنيين، الذين هم بالطبع العرب المسلمون، وهذا لايعني استبعاداً أو التقليل من تأثير الأبعاد الاقتصادية والسياسية في تلك الحملات الصليبية البربرية.

obeikandi.com

وإحـدى أهـم ظواهـر هـذه العدائية تغييـب الإرث المحمدي، بـل الثقافة العربيـة والإسـلامية عن الاستشـهاد بها أو الاسـتفادة من حكمها عـبر التاريخ، إن جميع كتب تطوير الذات وعلم النفس تستشـهد بالحكمة الإنسـانية من الشرق والغـرب، فتجـد في أي كتـاب مـن كتب تطويـر الـذات في المكتبة الغربيـة أقوالاً لبوذا وكنفوشـيوس وزرادشت، بل حتى إنه يتم الاستشهاد ببعض تراث القبائل الإفريقية، غير أنك لا تكاد تجد أي استشهاد بالموروث العربي والإسلامي، لا من القـرآن الكريـم، ولا من الحديث النبـوي، ولا من حكماء المسـلمين، وكأن هناك تحسساً مفرطاً وتغييباً تامًّا لهذا الموروث.

وعـلى الرغم من كل هذا، فهناك كثير من نصـارى أوروبا والمشرق من أهل الإنصـاف والعدل الذيـن قالوا كلمة الحق في نبينا محمـد ﷺ وقد أنجزت بعض البحوث والكتب التي توثق شهاداتهم في حق المصطفى ﷺ .

يقول «مايكل هارت»:

«إن محمداً كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشـكل أسـمى وأبرز في كلا المسـتويين الديني والدنيوي. إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير لـه للتأثير الديني والدنيوي معاً يخوله أن يُعـدّ أعظم شـخصية ذات تأثـير في تاريخ البشرية».

محمد الرسول ومحمد الإنسان:

روي عـن النبـي ﷺ أنه كان يقول في الصباح والمسـاء: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم،**

حنيفـاً مسـلماً، ومـا كان من المشركـين»، هذا واحد مـن مجموعة مـن الأحاديث التي يسـهل فهمها عندمـا نفترض أن النبي محمداً ﷺ يتـصرف، ويتحدث أحياناً بوصفه محمداً الإنسان، وحينها يشهد في بعض الأحيان لمحمد النبي بالرسالة، ويخبر صحابته بأنهم أعلم بأمور دنياهم، ويغير موقعه في مواجهة بدر بناء على مشورة.

ربـما يـؤدي التمييز بـين محمد الإنسـان ومحمد النبـي ﷺ إلى بعـض القراءات الجديدة لسيرته ﷺ وعلاقته بآل بيته وصحابته.

obeikandl.com

obeikandl.com

٣
الإيمان بين الفطرة والمسؤولية

obeikandl.com

obeikandl.com

الإيمان بين الفطرة والمسؤولية

الإيمان فطرة مغروسة في كل إنسان تحتاج إلى عقل وتدبر في النفس والكون، ثم تكفل الوحي بتجليتها وتثبيتها وإيضاح مطلوباتها وثمراتها.

فهو إذاً مسؤولية كبرى فردية خالصة لكل عاقل مكلف، غير أن الرب -عز وجل- قد وضع في كل إنسان خميرة الإيمان عند خلقه، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها، تأمل قول الرب عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾. وتقوم هذه الخميرة التي تشبه البادي في صناعة الأطعمة، بدور الخميرة الإيمانية القابلة للنمو، ولا يستبعد أن يكتشف العلماء لا حقاً شيئاً يشبه الجينات الإيمانية في التركيبات البيولوجية للإنسان.

إن بناء الإيمان مسؤولية فردية لا يجوز فيها التقليد ولا التبعية، فعلى كل إنسان عاقل مكلف أن يتدبر في نفسه والكون من حوله، ويستقبل رسالة محمد ﷺ حالما تصله لبناء إيمانه.

إن بناء الإيمان عملية مستمرة، فليست المسألة قراراً يتخذ أو مهمة تنجز، بل حياة تعاش.

إن البناء الإيماني يتعرض باستمرار لمحاولات التخريب والتقويض، ويتطلب حراسة وحذراً وصيانة مستمرة، والجميل في الأمر أنه كلما زاد الإيمان زادت الحصانة، وقل الجهد المبذول للصيانة والحراسة، ويزودنا الإيمان الإسلامي

obeikandl.com

بآلية مهمة لزيادة الإيمان، وهي الأعمال الصالحة، حيث إن المزيد من الأعمال الصالحة يقوي الإيمان، والعكس هنا صحيح.

يلاحـظ القـارئ أن الحديث عن بناء الإيمان هنا قـد دمج بين الإيمان بوجود الـرب -عز وجل- ووحدانيته والإيمان برسـالة محمد ﷺ ولعل المفهومين منذ بعث محمد ﷺ لا ينفكان، فقد أصبح من المتعذر النظر إلى إنسـان غير مصدق برسالة محمد ﷺ بصفته إنساناً مؤمناً، وقد حفلت الكتب بمحاولة معرفة الفروق بين الإيمان والإسـلام، ويعـدُّ الكثير أن حديث جبريل عليه السلام فيصل في هذا الباب، في حين يرى البعض أن الإيمان والإسلام مفهومان إن اجتمعـا افترقـا، وإن افترقـا اجتمعا، وقد حاول محمد شـحرور في مشروعه المعـروف أن يضـع تمييـزاً بـين الإسـلام والإيـمان، غـير أن هذا المـشروع لم يكتـب له النجـاح، وما يعتقده كاتب هذه السـطور هو أن: **الشـهادتين غير قابلتين للتجزئة.**

obeikandl.com

٤ تشغيل الإيمان

obeikandl.com

obeikandl.com

تشغيل الإيمان

تمر بالإنسان أحداث في حياته يكون فيها إيمانه محل اختبار حقيقي، وترتقي هذه الابتلاءات لدرجة أن أولي العزم من الرسل فقط هم الذين يتجاوزونها.

تأمل موقف أولي العزم من الرسل عليهم السلام:

إبراهيم عليه السلام ـ رد جبريل، وهو في المنجنيق.

موسى عليه السلام ـ ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

محمد ﷺ ـ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ عندما وطئت أقدام جوالة قريش فوهة غار ثور.

وتأمل موقف هؤلاء الرسل عليهم السلام:

لوط - ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ عندما داهم منزله الفساق من قومه بحضور الملائكة.

يوسف عليه السلام ـ ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ عندما خرج أحد السجينين معه.

زكريا عليه السلام ـ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ عندما بشرته الملائكة بيحيى.

وللإمام جعفر الصادق رضي الله عنه حديث مهم عن تشغيل الإيمان لدفع القلق والخوف استنباطاً من القرآن العظيم، حيث يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي في أحد مباحث تفسير الاستعاذة:

obeikandl.com

«والحق سبحانه وتعالى، يريدك عندما تقرأ القرآن، أن تصفي نفسك له سبحانه وتعالى، وهو جل جلاله يعلم مكايد الشيطان ومداخله إلى النفس البشرية، وأنه سيوسوس لك ما يفسد عليك فطرتك الإيمانية، فيأتي القرآن على فطرة فسدت، فلا يحدث استقبال لفيوضاته على النفس البشرية، ولكن إذا استعذت بالله، فقد استعذت بخالق، فلا يجرؤ الخلق على الاقتراب منك، ولذلك إن أردت من جهاز استقبالك أن يكون صالحاً لصفاءات الإرسال سامعاً لكلام الله؛ لأن الله هو الذي يتكلم، فالقرآن ليس كلام القارئ له، ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه أكثر آل بيت رسول الله معرفة بأسرار القرآن الكريم بعد تصنيفه لمفزعات الحياة عند الإنسان، هي الخوف والغم والهم والضر وزوال النعمة:

«عجبت لمن خاف، ولم يفزع إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾. فقد سمعت الله بعده يقول: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ ﴾ وعجبت لمن ابتلي بالضر، ولم يفزع إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فقد سمعت الله بعده يقول ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ ﴾. وعجبت لمن ابتلي بالغم

كيـف لم يفـزع إلى قـول الله تعـالى: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقـد سـمعت الله بعـده يقـول: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. وعجبـت لمـن أُضـير، ولم يفـزع لقول الله سـبحانه وتعـالى: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾. فقـد سـمعت الله تعـالى بعدهـا يقـول: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾.

وأنت مادمت في معية خالقك لا يجرؤ الشـيطان أن يذهب إليك أبداً، والتوكل على الله -عز وجل- في دفع الضر وجلب النفع هو في الحقيقة خلاصة الإيمان، تأمل: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾.

وكأن كل الهدى هو في التوكل على الله تعالى، وفي قصة بقرة بني إسرائيل ملحظ إيـماني عظيم، فالبقرة أصلاً كانت لرجل صالح مـن بني إسرائيل حضرته الوفاة، وله ولد واحد لم يبلغ الرشد، وليس له أحد يثق فيه يودع هذه البقرة عنده، فاستشار زوجته المؤمنة، فأشارت عليه أن يستودعها الله -عز وجل- ويرسلها في الفلاة، فتوكل على الله وفعل، ثم إنه توفي، وبعد مدة وعندما بلغ الابن سن الرشد سأل أمه إن كان أبوه قد ترك شيئاً؟ فتذكرت البقرة فقال: أنى لي أن أجدها؟ فقالت: إن أباك قد توكل، فاسترعاها، فتوكل واطلبها ففعل، وذهب إلى الفلاة يبحث عنها فوجدها، وعندما دخل بها المدينة إذا أوصافهـا تنطبق تماماً على أوصاف البقرة المذكورة لبنى إسرائيل في سـورة البقرة؛ لكشـف جريمة القتل، وفاوضوه على شرائها، وكان يستشير والدته، فأدركت حكمة الله في هـذه البقـرة، وقالت لـه: لا تبعها عليهم إلا بملء جلدها ذهبـاً، ففعل وقبلوا. إذا استطاع الإنسان أن يبني إيماناً قويًّا راسخاً، فلا بد أن يوظفه في إدارة شؤون حياته؛ دفعاً للضر وجلباً للنفع وراحة لقلبه وسكينة في النفس، وعطاء لمجتمعه وتضحية له.

obeikandl.com

٥
الصلاة
تجديد عقد الإيمان

obeikandl.com

obeikandl.com

الصلاة.. تجديد عقد الإيمان

قال النبي ﷺ: (**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**).

يتعرض البناء الإيماني لمواجهات مستمرة يتبناها الشيطان، فهذه وظيفته في الحياة، ويبدو أن من طبيعة الحياة الدنيا أن يظل هذا الصراع والمواجهة قائمة، وربما أن وجوده شرط لاستدامة الحياة.

وظيفة الصلاة الكبرى من وجهة نظري هي تجديد عقد الإيمان (صيانته) وذكر الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ ومن يتدبر سورة الفاتحة فسيفهم المقصود بشكل واضح. ولنتدبر هذا الحديث القدسي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: (**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي، وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: أهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**).

الذي يظهر أن الإنسان في صلاته يرتفع - بفضل الله ومنته - ليصبح طرفاً في عقد الإيمان مع ربه -عز وجل- لدرجة أن الرب سبحانه يتفضل بتوزيع بنود العقد بالتساوي، كما تفعل لو ذهبت لتوقيع عقد مهم من التجمل والاستعداد، فإن الرب

obeikandl.com

تبارك وتعالى يرشدك حتى للهيئة التي يجب أن تكون عليها حال ذهابك لتجديد عقد الإيمان، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كان يتوقف قليلاً بعد كل آية، ويقول: أسمع جواب ربي.

تأمل الآية الكريمة التي قسمها الله تعالى بين ذاته العلية وبين عبده: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ على العبد أن يخلص العبادة -تقديم إياك للتخصيص والتجريد- ومن الرب العون، وهنا خاطرة لطيفة من الشيخ محمد متولي الشعراوي عن اقتران هذين (البندين) فيقول رحمه الله:

«إن في ذلك إشارة إلى أن تخصيص الرب بالعبودية سيثير صراعاً في الكون يتطلب معونة الله على تجاوزه».

لاحظ حساسية المواجهة وصعوبتها مع الشيطان، فهي تتطلب أن يجدد عقد الإيمان خمس مرات في اليوم والليلة وثلاث مرات على الأقل في حالة السفر والحاجة.

سأضع تحت نظر القارئ ثلاثة اقتباسات عن الصلاة كتبها ثلاثة مسلمين أوروبيين:

الأول: مسلم أوروبي بالولادة، ومن أسرة مسلمة عريقة هو علي عزت بيجوفتش رئيس دولة البوسنة السابق رحمه الله.

والثاني: مسلم أوروبي تحول للإسلام عن اليهودية هو محمد أسد رحمه الله.

والثالث: مسلم أوروبي تحول للإسلام عن النصرانية هو مراد هوفمان وفقه الله.

- علي عزت بيجوفتش في كتابه **(الإسلام بين الشرق والغرب)**:

«الصلاة ليست مجرد تعبير عن موقف الإسلام، وإنما هي أيضاً انعكاس للطريقة التي يريد بها الإسلام تنظيم هذا العالم، فالصلاة تعلن أمرين:

obeikandl.com

أولهـما، أنـه يوجـد هدفـان إنسـانيان أساسـيان. وثانيهـما، أن هذيـن الهدفـين – عـلى الرغـم مـن انفصالهـما منطقيًّـا – يمكـن توحيدهمـا في الحياة الإنسـانية، حيث إنه لا صلاة من دون طهارة ولا جهـود روحيـة مـن دون جهود ماديـة واجتماعية تصاحبهـا. إن الصـلاة أكمـل تصويـر لمـا نطلق عليه «الوحدة ثنائية القطب» في الإسـلام. ونظراً لمـا في الصلاة من بسـاطة، فإنها قـد اختزلت هذه الخاصيـة إلى تعبـير تجريـدي، وأصبحـت بذلك المعادلة أو «الشيفرة» الإسلامية.

الصـلاة في الإسـلام باطلة مـن دون وضوء، بينما في الديـن المجـرد يمكـن أداء الصلاة مـع وجود (القذارة المقدسة) التي عرفتها بعض نظم الرهبنة في كل من المسـيحية والهندوسية، فالرهبان الذين يتجنبـون النظافة يشـعرون شـعوراً دينيًّـا أصيلاً أن إغفـال البـدن – بل الإهمال المتعمـد لنظافته – يقـوي العنصر الروحي في الصـلاة. وينطلق هذا المنطق من افتراض أن الصلاة من حيث المبدأ التي قامت عليه، ستكون صلاة أصدق إذا «تخلصت» مـن أي إضافة أو عناية بالبدن. فكلما قل لحضور البدني زاد التأكيد على الروحي.

يشـكل الوضـوء والحـركات في الصـلاة الجانب العقلي فيها، ووجود هذا الجانب لا يجعل الصلاة

obeikandl.com

قـاصرة على جانبها الروحي المجرد، وإنما يضيف إليهـا النظـام والصحـة معـاً، فهي ليسـت تأملاً صوفيًّا فحسب، بل نشاطاً عمليًّا أيضاً».

- محمد أسد في كتابه (**الطريق إلى الإسلام**):

يتحدث محمد أسـد عن عيشـه في بيت أحد أقاربه في مدينة القدس، عام ١٩٢٢م وفي معـرض حديثـه أشـار إلى جار له في البيت، يطلـق عليه لقب "الحاجـي" له فناء كان يؤجر فيه الحمير لحمل الأثقال، فقال:

«وكان يجمعهـم «أي الجـار» مـرات عـدة في النهـار للصـلاة، وكانـوا يؤدونها في الخـلاء إذا لم يكـن المطـر منهمـراً بغـزارة: كانوا يقفـون جميعاً في صـف طويل واحـد، وكان هـو إمامهم. كانوا كالجنـود في دقـة حركاتهـم - ذلـك أنهـم كانـوا ينحنـون معـاً في اتجـاه مكـة، ثـم ينهضـون ثانية ليركعوا من ثم، وتلمس جباههم الأرض، كانوا يتبعـون كلـمات قائدهم الخافتـة، وكان يقف بين الركـوع والسـجود حـافي القدمين على سـجادته المعـدة للصـلاة، مغمـض العينـين، مكتـوف الذراعـين فـوق صـدره، محـركاً شـفتيه دونـما صوت، وشـارداً في اسـتغراق عميـق: لقد كان في مكنتـك أن تـرى أنه كان يصـلي بروحه كلها. والحق أنه قد أزعجنـي أن أرى مثل تلك الصلاة العميقة مقترنة بحركات جسـمانية آلية، فسـألت

obeikandl.com

«الحاجي» ذات يوم، وكان يفهم الإنجليزية قليلاً: «هـل تعتقـد حقًّـا أن الله ينتظر منـك أن تظهر له احترامـك بتكرار الركوع والسـجود؟ ألا يكون من الأفضل للمرء أن يخلو بنفسـه، وأن يصلي إلى الله بقلبه؟ لِمَ حركات جسمك هذه كلها؟».

ولم أكـد أنطق بهذه الكلمات حتى شـعرت بالندم وتبكيـت الضمـير. ذلـك أننـي لم أكن أنـوي أن أجرح شعور الشـيخ الديني. ولكن «الحاجي» لم يبدُ عليـه قط أمارات الاسـتياء، لقد فتر فمه عن ابتسامة، وأجاب:

-«بـأي طريقة أخـرى، إذاً تحـب أن نعبد الله؟ ألم يخلق الجسـد والروح معـاً؟ وإذا كان هذا كذلك أفـلا يجب أن يصلي الإنسـان بجسـده، كما يصلي بروحه؟ اسمع، سأفهمك لِمَ نصلي نحن المسلمين كـما نصـلي؟ إننا نـولي وجوهنا نحـو الكعبة بيت الله الحـرام في مكة، مدركين أن المسـلمين كلهم، حيثـما كانـوا مولـون وجوههـم نحوهـا، وأننـا كجسـم واحد، وأن الله هو محـور تفكيرنا جميعاً، نحـن نقـف أولاً مسـتقيمين، ونقـرأ شـيئاً مـن القـرآن الكريـم، ذاكرين أنه كلمـة الله أنزلها على الإنسـان؛ كيما يكـون مسـتقيماً رصينـاً في الحياة. ثـم نقـول: الله أكـبر، مذكرين أنفسـنا بأنه ما من أحد يسـتحق أن يعبد إلا هو، ونركـع لأننا نَعدّه

فوق كل شيء، ونسبح بعزته ومجده وبعد ذلك نسجد على جباهنا؛ لأننا نشعر بأننا لسنا تجاهه إلا من العدم والتراب، وأنه هو الذي خلقنا، وهو ربنا الأعلى، نرفع وجوهنا عن الأرض، ونبقى جالسين، داعين إليه أن يغفر ذنوبنا، وأن يتغمدنا برحمته، ويهدينا الصراط المستقيم، ويهبنا العافية والرزق. ثم نسجد ثانية على الأرض، ونلمس التراب بجباهنا تجاه عزة الواحد الأحد وعظمته. وبعد ذلك نستوي جالسين، وندعو الله أن يصلي على النبي محمد الذي أبلغنا رسالته، كما صلى على الأنبياء من قبله، وأن يبارك أيضاً وجميع من يتبعون سواء السبيل، ونسأله أن يهب لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. وفي النهاية ندير رؤوسنا إلى اليمين والشمال قائلين: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وبذلك نحيي كل من كانوا من الصالحين، حيثما كانوا، هكذا كان النبي يصلي، وهكذا علم أتباعه الصلاة في جميع الأزمنة والعصور؛ وذلك كيما يسلموا أنفسهم إلى الله مختارين طائعين – وهذا هو معنى «الإسلام» – ويطمئنوا إليه وإلى مصيرهم.

obeikandl.com

- مراد هوفمان في كتابة رحلة إلى مكة (ص٥٧):

«ربـما يمكن القول: إنني كنت قريباً من الإسـلام بأفـكاري قبـل أن أشـهر إسـلامي عـام ١٩٨٠م بنطق الشـهادتين متطهـراً، كما ينبغـي وإن لم أكن مهتمًّـا حتى ذلـك الحـين بواجباتـه ونواهيه فيما يختص بالحياة العملية. لقد كنت مسلماً من الناحية الفكرية أو الذهنية، ولكني لم أكن كذلك بعد من الناحيـة العملية، وهذا على وجـه اليقين ما يتحتم أن يتغـير الآن جذريًّـا، فلا ينبغي أن أكون مسـلماً في تفكـيري فقـط، وإنما لا بـد أن أصير مسـلماً في سلوكي. إذا كان الدين يعني رباطاً يربط الإنسان بربه، وإذا كان الإسلام يعني أن يهب المسلم نفسه لله، فقد كان أهم واجباتي بوصفي مسـلماً حديث عهد بالإسلام في الخمسينيات من العمر أن أتعلم صلاة الإسـلام، وليـس من الـضروري أن يكون المرء خبيراً في الحاسـب الآلي ليـدرك أن الأمر هنا يتعلق بمسـألة اتصال.. مـا أصلح فنون الاتصال للاتصـال بـه؟ مـن المؤكد، عـلى أي حـال، أنه لا شيء يعرض إسـلام المرء للخطر أكثر من انقطاع صلته بربه.. ومن ثم يصبح التسبيح بحمد الله هو العنـصر المحـوري في حياة كل من يعـي، ويدرك معنـى مايقولـه عنـد مـا يقول: إنـه يؤمـن بالله.. وبناءً على ذلك، فإن من لا يصلي ليس بمؤمن من

وجهـة نظـري، فمن يؤكد لامـرأة غائبة حبه لها، دون أن تكـون لديه رغبة في التحدث إليها هاتفيًّا أو في الكتابـة إليهـا ودون أن يلقـي نظرة واحدة عـلى صورتها طول اليوم، ليس محبًّـا لها في حقيقة الأمر. وهذا ما ينطبق تماماً على الصلاة. فمن يعي ويدرك حقًّا المعنى الحقيقي لوجود الله، فسـتكون لديـه بالـضرورة رغبـة في التأمـل وفي التوجه إلى الله كثـيراً.. وبذلـك، فقد يصير ما يردده المسـلم كثـيراً، وهـو يقـرأ سـورة الفاتحـة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.. حقيقـة واقعة. كنـت حتـى في تلـك اللحظة أجهـل ما يجب فعلـه واتباعه في الصلاة. ناهيـك عن قدرتي على الحفـظ والتلاوة باللغـة العربيـة.. ومن ثـم، كانـت أولى أولوياتي آنـذاك هـي التغلب عـلى هذا النقـص.. وقبل أن أمعـن في دراسـة مقدمة مصـورة باللغـة الألمانية للصـلاة الإسـلامية، تحظـى بأكبر قدر مـن الثقة طلبـت مـن صديـق تركـي أن يعلمنـي الوضوء وكيفيـة الوقوف في الصلاة والركوع والسـجود والجلـوس عـلى الأرض مسـتنداً عـلى القـدم اليسرى، ورفع الذراعين واتجاه النظر، ومتى يقرأ المرء جهراً، ومتى يقرأ سرًّا مع تحريك الشفتين في القـراءة، وكيف يقف المرء موقفاً صحيحاً خلف الإمام، وكيف يتصرف المرء عندما يأتي متأخراً إلى

obeikandl.com

المسـجد، وكيف يتحرك داخل المسـجد. إنه علم كامـل! وفي الحقيقـة، فإنه من الخطـر أن يتصرف المسـلم بوصفـه مسـلماً دون أن يكـون كذلـك».

ومـن أجمل مـا قرأت عـن الـدلالات الرمزية في الصـلاة ما كتبه أحد منسـوبي الحـرس الوطنـي في المملكـة العربية السـعودية في مجلة الحرس الوطنـي تحت عنوان: خواطر صائم، وهو الملازم أول (ولعله الآن في رتبة أعلى) الحبابي بن مبارك الحبابي:

«الصـلاة لا تأتي في وقت واحد على مكان واحد، بجميـع فروضهـا، بل تمر على جميـع مناطق العالم متعاقبة، ومتسلسلة، وفي ذلك التعاقب والترتيب يحيـا العـالم، ويتجـدد. ووقـت الصلاة لـه دورة متعاقبـة، تغطـي العـالم وتوفيـه حقـه بالتـوازن والاكتـمال. فهـي تمـر عـلى يابسـه وبحـاره، من شرقـه لغربـه، وفي ليلـه ونهـاره، تتـدرج التدرج المحكـم المـوزون. فلا يمـر وقـت إلا في بلد أذان أو صـلاة، وكأن الصـلاة بهذه الحالة موجة تشـق طريقهـا العريـض مبحـرة تنهـض كل موطـن تمـّره، وترفـع جنـاح كل قطـاع تغمـره. حتى إذا اكتملـت هـذه الـدورة، بـدأت من جديـد، على النهج نفسـه، لتعيد الكرة عـلى العالم مرة أخرى. وهـذه الـدورة (الموجـة) لا يعقبهـا دمـار ولا خراب، بل يعقبها أجر وثواب إن شـاء الله. فهي تبدأ بـالأذان، وتقتفي بالتهليل والاطمئنان. وهي موجـة النجـاة. فالسـعيد مـن وافق هـذه الموجة

obeikandl.com

وكان له منها نصيـب. والخاسر من فاته الركب، ولم يكن لداعي الله مجيباً. إن للمصلين في توافدهم على المسـجد إذا حان وقت الصلاة، واصطفافهم الصـف، واتجاههم الاتجاه الواحد، لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو بصير.

بل لو تمعنا كيف أنهم يلتمّون بعضهم إلى بعض، فتشـتبك الأكتـاف، وتتوحـد النيـات، ويتوحد الإمـام، ليؤتم به... بعدها ترتفع الأيدي، وتعلن الألسن التكبير: «الله أكبر». ثم تضم الأيدي على الصـدور، رابطـة أحزمة الأمـان، لرحلة الإيمان، التي تحلق في الأكوان، خشـوعاً واطمئناناً. رحلة يبـدأ فيها الإمام بقـراءة أم الكتاب، التي لا تصح صـلاة مسـلم إلا بقراءتهـا، وبهـا يحمـد الـرب، ويمجَّـد، ويعظـم، والمأمومون مـن خلف الإمام يتابعـون، ويتأملون، ويرجون من الله ما يرجون، حتـى إذا أتـى آخر السـورة وكل تأهب، لتتوحد الكلمة، ويوحد الصوت، ويقولون «آمين»، وكأن الطيـور، التـي ضمـت أجنحتها عـلى الصدور، آنسـت ربيع قلوبها فغردت، وتحركت أشجانها، فأنشدت كلمتها الصغيرة «آمين» التي ترجو منها عطـاء رب العالمين العظيم. وهي كلمة تنبض بها قلوبهـم، وتنشـدها ألسـنتهم، وتخرجهـا آمالهم. إنها لعبرة كلمة (آمين)، هي تسـمع من المصلين،

بـين الفـترة والحـين، وهـي كلمـة قلناهـا، فهـل وعيناها، وأديناها بخشـوع وإخلاص، لنحصل على رضا رب الناس وقبوله؟»

الشيخ محمد متولي الشعراوي يمثل الصلاة بصنعة تعرض على صانعها، فيقول:

«إن الإنسـان (صنعة الله عز وجل) تعرض خمس مرات يوميًّا على صانعها (الخالق عز وجل) فمن يؤدي الصلاة حق أدائها لا بد أن تستقيم حياته».

و الجديـر بالملاحظـة أن الإنسـان في أثنـاء صلاتـه نهي عـن التشـبه بالحيوانات في مختلـف الصـور: نقـر الغـراب، إقعـاء الكلـب، تلفـت الثعلـب، بـروك البعـير، افتراش السبع.

لا شيء مطلقـاً يفعـل فعـل الصلاة في إعلاء شـأن الإنسـان، في كتاب (**نهوض التفكير**) فطن المفكر الإسلامي د. عبدالكريم بكار في سياق مختلف إلى حقيقة مفارقة الحيوانية وعلاقتها بتعميق الإنسانية، فقال:

«كلما تقدم الإنسان بإنسانيته فارق الحيوانية».

obeikandl.com

obeikandl.com

٦
الصوم
شاحن وكابح

obeikandl.com

obeikandl.com

الصوم.. شاحن وكابح

في شـهر رجب ١٤٢٦هـ زارني رجل أعمال كبير من أثرياء العالم؛ لإنجاز عمل مهـم في إحـدى مدن القصيم، وبعـد الاتفاق على خطة معالجة الموضـوع، طلبت منه تحديد موعد لاحق خلال أسـبوعين؛ لمناقشـة ما تم إنجازه، فاعتذر بأن جدول أعماله في شـعبان لا يسمح بذلك بسبب أن مديري قطاعاته المتعددة ينهكونه في هذا الشهر؛ لعلمهم أنه لا يسـتجيب خلال رمضان لطلـب الاجتماعات، حيث يخصص في ذلك الشهر وقتاً أكبر للعبادة.

وقـد لاحظت خـلال ثلاثين عامـاً من العمل في قطـاع البلديـات أن أصحاب المشروعات والأعمال يخفّ شحّهم وحرصهم في هذا الشهر عن غيره.

وعلى صعيد مشـابه عانت إحـدى قريباتي صداعاً عنيفاً متصلاً أسـابيع عدّة، لم تفلح معه أدوية الصداع التقليدية، وهذا دعانا إلى طلب مشورة طبية من مركز متقدم، فتوجهنا إلى مدينة الرياض، وراجعنا استشـارية سـعودية، وبعد الاسـتماع للشـكوى وإجراء بعض الفحوص الروتينية طمأنتنا، وقالت: أولويتنا الأولى هي كسر هذه الدوامة (breaking the cycle) ثـم وصفـت لنـا علاجـاً مختلفـاً تمامـاً عـن علاجـات الصداع التقليدية، غرضه فقط كسر هذا الداء المستمر.

هاتان الحادثتان ذكّرتاني بشهر رمضان، فبعد مغادرتنا هذه العيادة، وبعد نجاح خطة علاج هذه الدكتورة، ولله الحمد بدأت أستحضر دورة الحياة وضرورة كسرها، كلما هلَّ علينا شـهر رمضان، إنه يشـبه الدواء الطبيعي الرائع للذي يدور بلهف حول شهواته الدنيا.

obeikandl.com

والحقيقـة أنه ليس في الإسـلام أمر ينهى عن العمل في شـهر رمضان أو التقليل منه، بل إن حوادث كبرى للأمة وانتصارات حاسـمة تمَّت في هذا الشهر، ولكن المهم أن نفرق بين أعمال عظيمة قصد بها وجه الله تعالى والنفع العام وأعمال ذات نفع فردي يرسخها الشح.

أعتقد أن إحدى وظائف شـهر رمضان الجلية هـي تهدئة الاندفاع البشري نحو المطالب الدنيوية، إنه يشـبه الكابح (الفرامل) في السـيارة، فعندما تزيد سرعة السيارة عـن السرعـة الآمنة لا بد من كابح يعيدها إلى السـير بأمان، وهذا أحد الأدوار المهمة التـي يعالجهـا هذا الشـهر العظيـم كل عـام، إضافة إلى كبـح الشـهوات ذات الطابع البيولوجـي في الإنسـان، وهي مسـألة واضحـة في الصوم، ولكن الملاحـظ هو ذلك الهدوء النفسي وانخفاض حدة السعار المادي الذي يفسد حياة الناس.

في كل عام يضغط رمضان كوابحه على إيقاع الحياة؛ ليعيد توجيهها نحو أهدافها السامية دون أن يحرم عمارة الأرض من نفع الإنسان.

رمضـان منارة لإعادة توجيـه دفة قارب النجاة، إنه علامـة مرجعية واضحة في طريق الحياة تؤكد إعادة الحسابات والبحث عن الاتجاه الصحيح.

وضعـت الحضـارة الغربية منذ نجـاح حركة الإصـلاح الديني البروتسـتانتي، وما أعقب ذلك من نجاح كبير للرأسـمالية، الإنتاج بوصفه قيمة عليا وهدفاً أسـمى، وأصبح مرجعاً للإنسان؛ ليقيس به نجاحه وإنجازاته.

ثم بدأ حكماء الغرب يراجعون هذا التوجه، وقد ظهرت كتابات كثيرة تحث كل إنسان على مراجعة مستمرة لأولوياته في الحياة وعدم التركيز على الحياة المهنية مثلاً أو جمـع المـال أو تحصيل مركز اجتماعي مرموق، وقد كتب في هذا الموضوع عدد كبير من الكتب، ربما يكون أحد أشـهرها كتاب سـتيفن كوفي «الأهم أولاً» وهو يحكي بشكل

تراجيدي قاسٍ عن عدد كبير من الرجال والنساء في الغرب الذين ركزوا على حياتهم المهنية، ونسوا الجوانب الأخرى في الحياة، ثم أفاقوا في وقت متأخر.

نعـود إلى رمضان، إنـه دورة تدريبية لضبـط الاتجاه وتقويـة الأهداف وتخفيف سرعـة إيقاع أحـداث الحياة؛ حتـى يمكن التعرف إليهـا ومراجعتها، فربـما أن الحياة إذا كانت تسـير بأسرع مما نسـتطيع إدراكه، فهي تفقدنا القـدرة على فهمها وتصحيح الانحراف في الاتجاه، وكما قال حكيم لأحد الباحثين عن السعادة:

«تمهل قليلاً؛ إن السعادة تحاول اللحاق بك».

وقـد بالـغ بعـض أفـراد مجتمعنـا بتقمص طريقـة الحيـاة الغربيـة الموجهة نحو الإنجـازات والنتائـج والنمـو بطريقة لاتـوازن فيها، فاشـتبهت حالنـا بطريقة الحياة الغربية، كمن وُضِع على سرج فرس جموح دون أن يسلم اللجام، وهو لا يجيد ركوب الخيل، والنتيجة قلق وخوف وسعي لاهث دون أي اتجاه، وربما سقوط قاتل.

رمضان يسلم لجام الفرس للفارس؛ ليعيد توجيه الحياة، ويضبط سرعة إيقاعها.

obeikandl.com

obeikandl.com

٧ رحلة الحج

obeikandl.com

obeikandl.com

رحلة الحج

الحيثية الأساس للقيام بجميع التكاليف الشرعية الإسلامية هي: الإيمان بالله والالتزام بأوامره ونواهيه، وقد فطن الشيخ محمد متولي الشعراوي -رحمه الله- إلى أن خطاب التكاليف في القرآن غالباً ما يأتي بفعل محذوف الفاعل، مثل:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾.

ما يوحي بأن هذا التكليف ناتج عن عقد الإيمان، وليس له معنى في ظل غياب الإيمان.

فمعلوم أن غير المؤمن غير مكلف، ومع ذلك فإن التكاليف الشرعية في الدين الإسلامي لها حِكَم بالغة الوضوح ومناقبها الدنيوية ظاهرة والصلاة والزكاة والصيام أوضح مثال.

ولكن كثيراً من دلالات وحكم الحج والعمرة مازالت مجالاً واسعاً للبحث والتأمل، فعند بعض غير المسلمين هي غير مفهومة إطلاقاً، بل تطرق بعض الغربيين إلى اعتقاد أنها إرث وثني.

وعندما سئل بعض علماء الأمة عن حكمة الطواف مثلاً، كان الجواب أن الطواف فحص للإيمان، حيث يطلب من المؤمن أن يقوم بعمل يصعب عليه فهم الحكمة منه، وإنما هو امتثال لأمر الله -عز وجل- وهذا جواب رائع، وينطبق ذلك على معظم مناسك الحج، حيث إن المؤمن يقبِّل حجراً، ويرجم آخر لا يبعد عنه سوى مسافة قليلة.

obeikandl.com

غـير أن مـن واجب المؤمـن أن يطيـل النظر والتدبـر والتفكر في كـون الله -عز وجـل- ونواميسـه، وكذلك في أوامـره ونواهيه؛ لعلـه يفهم بعـض أسرار العبادات الشرعية دون أن يؤثر ذلك في رضاه وامتثاله لأوامر ربه.

استغرقت مدة طويلة في تفكير عميق حول الدلالات الرمزية في الحج والعمرة، وسأضع هذا الاجتهاد تحت نظر القراء الأعزاء، فقد يكون في بعضه فائدة.

تنقسـم مخلوقات الله من حيث التكليف إلى قسمين رئيسين: مخلوقات اختارت ألا تختـار، وإنسـان اختـار أن يختار، يقـول الرب عزوجـل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾. فقـد أدركت جميع المخلوقات بفطـرة الله التي فطرها عليها، الفرق الكبير بين التحمل والأداء، فقد تصدر وعداً، وتعجز عن تنفيذه، وقد تحتمل أمانة، ثم تقعد همتك عن إنجازها، أما الإنسـان فقد تصدى للأمانة، واختار أن يكون مختاراً لحكمة أرادهـا المـولى -عز وجل- وعلى هذا الأسـاس نحن نعرف أن جميـع مخلوقات الله في هـذا الكون تسـير وفـق قوانين دقيقة منتظمة، فالشـمس والقمـر والكواكب تطوف حول بعضها في مواعيد دقيقة جدًّا تسـبح بحمد ربها، ولا ترتكب أي معصية، فليس لهـا إرادة أو قـدرة عـلى ذلك إلا بإذن ربها في حالات اسـتثنائية، فلم يسـبق للشـمس أن تأخـرت عـن الشروق في موعدها المحدد، سـواء على بلاد مؤمنـة مطيعة أو كافرة فاجرة. أما الإنسـان فقد وهب إرادة الاختيار، وبهذا يرتقي عندما يطيع ربه، ويعيش وفق منهجه إلى مرتبة لا يرتقي إليها أي من مخلوقات الله؛ لأنه عمل ذلك بإرادته التي منحها الله له، فقد خلق الإنسان قادراً على الطاعة وعلى المعصية وفق مشيئة الله تعالى.

من يتدبر رحلة الحج من بدايتها يكاد يرى فيها إعلاناً من الإنسان وعزيمة على أن يسير في الحياة وفق منهج الله لدرجة تشابه مخلوقات الله غير المختارة. فالحج يعمق الإيمان بطريقة مكثفة، حين يرسـخ نزعة التسـليم الذي يجسـد لب الإيمان وجوهره، ذلك أن عقلنة الإيمان في كل مسألة جزئية من شأنه إضعاف الإيمان.

obeikandl.com

دعونـا نتتبـع رحلـة الحج مـن بدايتهـا؛ لننظر فيما يمكـن أن نفهم مـن دلالاتها العظمى، غير ما هو معروف من تحقيق العبودية لله والمتابعة لنبيه وتحصيل المنافع:

الإحـرام: فعندما يلبس الإنسـان ثيـاب الإحرام التي تكاد تقتصر على ما يسـتر عورتـه، ومـا قبـح من جسـده يعلـن تخليه عن أحـد أهم مـا يميزه عـن مخلوقات الله الأخـرى التـي لم تعرف ثقافـة الملبس، فلا يوجد في مخلوقـات الله الأخرى من يعرف أخلاقيـات الملابـس أو التزين، لا من الجمادات ولا من النبـات أو الحيوانات، ويؤيد هـذا آية الأعراف: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾. فعنـد الإحـرام يعلن الإنسـان عن تلبيتـه نـداء الله ورغبته في التماهي إلى حد كبير مع مخلوقـات الله الأخرى، ويعزز هذا الشـعور أنـه يحظر عليه التعرض لصيـد البر أو عضد الأشـجار، ولا يمس طيباً، ولا يزين شـعره، فيعلن السـلام العام مع كائنات الله، في تلبية نداء ربه وحضوره إلى بيته الحرام الذي اختاره الرب ليكون قبلة للمؤمنين.

الطـواف: لـو تأملت مخلوقـات الله صغيرها وكبيرهـا، الأجرام السـماوية، وما داخل النواة، سـتجد أنها كلها تطوف حول محور معين، فكواكب المجموعة الشمسية تدور بانتظام حول الشمس، والشمس وكواكبها تدور حول مجرة أخرى، وهكذا.

عندما نطوف حول الكعبة، فكأننا نشابه بطاعتنا للرب -عز وجل- المخلوقات غير المختارة في أدائها لواجباتها وانصياعها التام لخالقها -عز وجل-، ومما يضاعف هذا الإحساس لباس الإحرام والتخلي عمّا يميزنا بوصفنا بشراً من ملابس وأغطية الرأس.

ويثبـت الدعاء الذي نسـتفتح به طوافنا، هذه المعـاني العظيمة، والذي ورد عن رسـول الله ﷺ وصححه بعـض العلماء: ((**اللهم، إيماناً بك ووفـاءً بعهدك وتصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك محمد** ﷺ)).

ومسح الحجر الأسود وتقبيله في أثناء الطواف يشبه المبايعة على التسليم والطاعة.

السعي: وإذا أردنا أن نكمل فهم هذه التكاليف، فنقول: بعد أن يطوف الإنسان، ويعلن عمليًّا التزامه بطاعة ربه التزاماً يشابه طاعة غير المختار من المخلوقات ينتقل إلى السعي بين الصفا والمروة، وهو في نظري شعيرة ترمز إلى الكفاح لتحصيل ضرورات الحيـاة، حيـث يمثل الماء ركن الحياة الأول والسـعي بين الصفا والمـروة يفسر على أنه متابعـة لهاجـر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام وأم إسـماعيل عليه السلام في أثنـاء بحثها عن الماء لهـا ولطفلها، وهـو حركة ترددية، وليسـت دائرية كما في الطـواف. ويمكن أن يفهم، وكأنه الركن الثاني للحياة البشرية، فهو سـعي لتحصيل ضروريات الحياة، ففيه كفاح وسـعي وجهد، وجاء أيضاً طلباً للماء الذي جعل منه الله -عز وجل- كل شيء حي، وعندما تسمح ظروف الحياة يركض الإنسان ركضاً (كما فعلت هاجر في بطن الوادي بين العلمين الأخضرين الآن) لاحظ هنا أن السـعي لا يشـترط له الطهارة؛ ربما لأنه يرمز إلى العمل الدنيوي.

وتذكر أن المسلم مأمور بأن يقف بين كل شوطين على الصفاء والمروة، وينظر إلى الكعبة، ويدعو، ماذا يمكن أن تفهم من هذا؟

التأكيـد على ضرورة الالتزام بمنهج الله -عزوجل- في تحصيل ضرورات الحياة وألّايلهيك السعي في تحقيق منافعك عن ذكر الله عزوجل.

الحلـق أو التقصير: وتكتمل الصورة بشـكل رمـزي لا نظير له، عندما نفرغ من السـعي (ننجح في تحقيق المطلوب) فإننا نحلق رؤوسـنا تعبيراً عن التواضع، إن نظرة تأملية إلى شـخص طأطأ الرأس لحلاق تشي بكثير من الاعتراف بالمساواة والتواضع.

أي معانٍ عظيمة في الحج والعمرة؟!

إن الطواف والسـعي والحلق تختصر رحلة الإنسـان الظافرة (رحلة الفلاح) في هـذه الدنيـا الفانيـة، لاحظ أن بيـت الله (الكعبة) الـذي بـوأه الله لإبراهيم عليه السلام هو

في بعـدي العـرض والطول، وهو بذلك خارج الإرادة البشريـة، أما البناء الذي رفعه (البعد الثالث) إبراهيم وإسـماعيل عليهما السلام فهو داخل في التكليف التزاماً وفسـقاً، وقد يتعرض عبر تاريخ البشر للهدم أو التصدع.

الرقـم ٧: يلاحـظ اسـتخدام رقـم سـبعة في الطـواف والسـعي، وهـذا الرقم ومضاعفاته يرمز للكثرة والاسـتمرار، تدبر قول الله -عز وجل-: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

وكان الرسول ﷺ يقول: (**لوكنت أعلم أن لو استغفرت لهم أكثر من سبعين مرة غفر الله لهم لاسـتغفرت لهم**) ما يدل على أن استخدام ٧/ ٧٠/ ٧٠٠ في القرآن الكريم هو دليل على الكثرة غير المحدودة، أو كما يعبر عنها في الرياضيات باللانهائي (∞).

أثـار الرقـم ٧ تسـاؤلات عـدّة، فهو رقـم تتفاءل بـه شـعوب الأرض وفي دين الإسـلام يتكـرر الرقـم ٧ في أشـواط الطواف والسـعي ورمـي الجـمار، وفي كثير من الأذكار، وأيام الأسـبوع سبعة والسماوات سبع والأراضون سبع، وفي القرآن وردت سبعة ومضاعفاتها:

﴿...إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً...﴾.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾.

﴿حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ﴾.

تأملات

قد يكون الرقم سبعة رمزاً على الاستمرار، وليس المقصود العدد نفسه.

قارن ما يأتي: في الصلاة تتجلى أبهى صور الإنسانية وأرقاها، وأعظم تمايزها عن بقية مخلوقات الله في الملبس «الزينة» والنظام «الاصطفاف» والترفع عن حركات الحيوانات.

obeikandl.com

وفي الحج يؤمر المؤمن بالتخلي عما يميزه عن بقية مخلوقات الله، ويتماهى معها في التخفف من الملبس والدوران أو الطواف حول شيء ثابت ومسح الجمادات وتقبيلها، ومـا إلى ذلـك، وكأنـه يتخلى عن النعمـة؛ ليعيش مـع المنعم، وبذلـك تتحقق عبودية الإنسان لربه في جانبه الإنساني وجانبه الحيواني.

الحضارة والثقافة:

يحاول الدكتور علي عزت بيجوفيتش في مشروعه الفكري الكبير (الإسـلام بين الـشرق والغرب) أن يضع حداً فاصلاً بين الثقافة والحضارة، وبحسـب الدكتور علي عزت، فالثقافة تبدأ بتمهيد سـماوي، ويدخل فيها الدين والفن والأخلاق والفلسـفة أما الحضارة، فهي اسـتمرار للحياة الحيوانيـة ذات البعد الواحد أو التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة، ويستمر الدكتور علي عزت قائلاً:

> **«الثقافـة هـي تأثـير الديـن في الإنسـان، أو تأثـير الإنسـان في نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء في الطبيعة أو العالم الخارجي».**

ويمتلئ كتاب الدكتور علي عزت (الإسلام بين الشرق والغرب) بالأمثلة التي توضح الحد الفاصل بين الثقافة والحضارة، ويخلص إلى أن الثقافة موجهة للإنسان في حين الحضارة موجهة للمجتمع.

وكـما يعلـم أي متتبـع لمشروع الدكتـور علي عزت -الـذي أثار كثـيراً من ردود الأفعال في أوروبا وغيرها، وحصل بموجبه على جائزة الملك فيصل لخدمة الإسـلام عـام ١٤١٣هــ- أن محور فكـرة المشروع تدور حـول ثنائية القطب في الإسـلام، بين الثقافـة والحضـارة، وتعدّ الصلاة أكمل تصوير لما يمكـن أن يطلق عليه وحدة ثنائية

القطب في الإسلام، ففي الأديان الأخرى المجردة تؤدى الصلاة دون وضوء، بل مع وجود ما يسمونه القذارة المقدسة، أما في الدين الإسلامي فالصلاة ثقافة باتصال الإنسان بربه وحضارة بتطهره ونظافته، وهكذا يمكن أن نقول في عبادات الإسلام الأخرى.

وقد لاحظت في أثناء قراءتي للقرآن الكريم أن الخطاب في شأن الحج يأتي باستعمال كلمة الناس على صيغ عدة:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾.

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾.

ويضاف إلى ذلك بعض الآثار في السنة النبوية، كقوله ﷺ: (**الحج يوم يحج الناس...**).

وإذا سرنا مع تحليل الدكتور علي عزت بيجوفيتش، فإن الثقافة تتوجه للإنسان فرداً بالدرجة الأولى، أما الحضارة فهي تتوجه للمجتمع، فهل يمكن أن نفهم، أن الصلاة فعل ثقافي بالدرجة الأولى والحج فعل حضاري؟

ويسند هذا الاستنتاج إمكانية أداء الصلاة بشكل منفرد، أما في الحج فلا معنى له إلا مع الناس.

obeikandl.com

obeikandl.com

٨
الذكر
برمجة ذكية للإيمان

obeikandl.com

obeikandl.com

الذكر .. برمجة ذكية للإيمان

((إذا شاهدت في إخلاصك الإخلاص، فقد احتاج إخلاصك إلى إخلاص)).

حكمة صوفية

شـاع في نهاية القرن العشرين في كتب تطوير الذات، وبخاصة بحوث المعالجين النفسـيين اسـتعمال ما يطلقون عليـه التوكيـدات **affirmations**، ومهمتها الأسـاس تصحيـح اعتقاد الإنسـان عن نفسـه، وهي تنبع من مسـلمة مهمة لـدى علماء النفس تقول: إن ما يشـعر به الإنسـان هو ما يفكر فيه، ومن ثم فإن أمكن برمجة عقله الباطن بأفكار إيجابية، فإنه سيشـعر بشكل إيجابي، وبحسب عشرات الكتب التي قرأتها، فإن الإنسـان إذا واظب على قراءة توكيد معين، مثل: (أنا واثق من نفسي وقدراتي) وكرر هـذه العبـارة كل صباح ومسـاء عدداً كبيراً مـن المرات، فإنه يصبـح بالفعل واثقاً من نفسـه وقدراته. ويفسرون ذلك بأن العقل الباطن الذي يتولى إدارة مشـاعر الإنسـان إلى حد كبير (بحسـب زعمهم) يتبنى هذا التفكير الذي يمليه التوكيد السـابق، ويبدأ الإنسـان فعلاً يشـعر بالثقة بنفسـه وقدراته. ويؤكدون أنه كلما زاد تكرار العبارة زاد رسوخها بشرط أن تكون عبارة إيجابية بمعنى أنك لا تقول: (أنا لا أشك في قدراتي)، بـل تقـول: (أنا أثق بقدراتي)، لأنه بحسـب رأيهـم، فإن العقل الباطـن يدرك الصور فقط، ويتعرف إليها، ولا يقرأ العبارات، ومن ثم فالنفي ليس له معنى.

وكـما يعلـم معظم من يقرأ في علم النفس أن العقـل الباطن بوصفه نظرية لم يتم التحقق منها بشكل قاطع، ولكن تبنيها يساعد على فهم كثير من أسرار النفس الإنسانية، ومـن ثم فمن المفيـد الإبقاء عليها، وتفعيلها بشـكل ذكي في محيط النفس الإنسـانية.

وإذا كان من المعروف أن أول من افترض وجود العقل الباطن هو «سـيجموند

حتى في الصلاة نسبح ربنا -عز وجل- في سجودنا، ثم نستغفره في الجلسة بين السجدتين، هل ثمة حكمة؟

دعونا على سبيل المثال نحاول التعرف إلى التسبيح والاستغفار. التسبيح في أصله اللغوي هو (س ب ح) بمعنى(نزه) ومن ثم فتسبيح الرب سبحانه هو تنزيهه عن النقائص وتمجيده بالكمال المطلق.

وقد جاء في القرآن بألفاظ عدة:

سبحان - سَبَّح - يسبِّح - سَبِّح.

وقد ورد بهذا الترتيب نفسه أيضاً في القرآن، فسبحان بمعنى أن الله سبحانه منزه قبل أن يوجد من ينزهه.

وسَبَّح تعني أنه مضت سنة المخلوقات على التسبيح، ويُسبِّح تعني أن مخلوقات الله ما زالت تُسبِّح.

وسَبِّح إذاً أمر إلهي لمحمد ﷺ ولمن اتبعه بأن يسبحوا، فالترتيب منطقي جداً.

الاستغفار أصله (غ ف ر) ومعناه لغويًّا: الستر والتغطية، ومن ذلك كما في لسان العرب غفر الله ذنوبه أي سترها. ويفيد في المصطلح محو الذنوب.

وقد لفت نظري تعريف للمغفرة أورده الدكتور جون جري مؤلف كتاب: (كيف تحصل على ما تريد وتحب ما لديك) وهو أيضاً مؤلف الكتاب الشهير (الرجال من المريخ والنساء من الزهرة) يقول الدكتور جري: الغفران هو التخلص من نزعتنا لتحميل الآخرين مرورنا بالأزمات في هذا العالم.

هل من سر خلف ارتباط التسبيح بالاستغفار في حياة المؤمن؟

obeikandl.com

لنأخذ المثال الآتي:

تصور أنك تبني في منزلك مظلة لسيارتك مجاورة لمنزل جارك، وفي أثناء العمل مـر عليـك الجار وطلب إليك أن تتنبه إلى تثبيت الحديد في أثناء الإنشـاء احتياطاً لأي عاصفـة محتملـة. لم تهتـم بما طلبه الجـار، وهبت عاصفة في المسـاء، وسـقط جسر من الحديد على منزل جارك، وهشـم سـيارة الجار، ما فرصتك في أن يسـامحك الجار ماديًّا ومعنويًّا؟ الإجابة تعتمد بشكل كبير على حالة الجار المادية والنفسية.

إذا كانت السـيارة مشـتراة بالتقسـيط، وتشكل نسـبة كبيرة من دخله الشهري، وليس لديه رصيد يسمح بشراء سيارة أخرى، ففرصتك في المغفرة أقل.

إذا كان الجار صعب المراسٍ وقاسيًّا، ففرصتك في التسامح أقل وأقل.

أما إن كان الجار غنيًّا جدًّا، يملك ثروات هائلة وكريماً جداً وودوداً لم يؤثر الحادث في حياتـه في نفسـه أو أولاده، فـإن فرصتك هنا في التسـامح والمغفرة شـبه مضمونة.

ولله -عز وجل- المثل الأعلى، فعندما نقول: «سبحانه» ننزه الرب عن الاحتياج إلى أي مخلـوق أو الشـح أو البخل وخزانته لا تنفـد، ولا تنقصها الذنوب أو المعاصي إذاً مـن المناسـب جدًّا للعبد المذنب أن يسـبح الرب -عز وجل- ويسـتغفر، ولسـان حالـه يقـول: يا من لا تـضره معصيتي، ولا تنفعه طاعتـي، ولا ينقص من ملكه شيء بسببي، يا رحيم، يا ودود، يا قريب، يا مجيب، اغفر ذنوبي، وقريباً من هذا المعنى أورد ابن الأثير في النهاية: (التسـبيح فيه نفي النقائص والمعايب عن الله تعالى، والاستغفار فيه طلب السـتر لذنوب العبد وعيوبه ووقايته من شرها، فإذا قرن العبد بينهما تضمن ذلك إقراره بكمال الرب تعالى وتنزيهه عن العيوب والنقائص مع الإقرار بنقص العبد وتقصيره وافتقاره إلى الله تعالى وإلى ستره ووقايته وغفرانه).

وقدوتنا ﷺ كان يتمثل القرآن في هذا، فيقول: سـبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم، اغفر لي.

تأمل أيضاً اقتران التسبيح بالحمد، فأي نعمة أعظم من كمال الله -عزوجل- وغناه عن مخلوقاته وعن الصاحبة والولد وعدم حاجته سبحانه لولد ولا شريك ولا ولي.

تخيل حال الكون وسكانه لو أن القيوم عليه له شركاء أو ولد أو أولياء!

وهل أفسد الأمم منذ القدم إلا أن القائمين على أمورها ذوو صاحبة وولد ولهم شركاء وأولياء؟!

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾.

تأمل:

«**سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته**» استفراغ لكل ما يمكن من وحدات القياس.

عدد خلقه: عدد.

زنة عرشه: وزن.

مداد كلماته: مساحة.

أما الرضا فهو غير قابل للقياس.

«لاحول ولاقوة إلا بالله».

ألا يثير انتباهنا في هذا الذكر العظيم ارتباط الحول (التحول من حال إلى حال) بالقوة. لنتذكر قانون الفيزياء الراسخ الذي يشترط وجود قوة لأي تحول للمادة.

الدعاء:

ما الوظيفة الحقيقة المنوطة بالدعاء، والمقصود هنا دعاء الطلب، وليس دعاء الثناء، خلق الله الإنسان، وسخر له ما في الأرض أو بشكل أدق كما ورد في الحديث القدسي:

obeikandl.com

«خلقتك من أجلي وخلقت الكون من أجلك، فلا تنشغل بما خلق لك عما خلقت له».

تنقسم الظروف المحيطة بالإنسان إلى قسمين رئيسين:

١. قسم يقع تحت إرادته وفي مكنته.

٢. قسم يخرج من دائرة إرادته وإمكاناته.

وإذا تدبرنا سير الأنبياء عليهم السلام وخاتمهم الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ، يبدو بجلاء أنهم لا يضعون الدعاء في غير موضعه، فموضع الدعاء يتأكد من وجهة نظرنا في القسم الثاني، وهو الظروف والأمور التي ليست في مكنة الإنسان، وأوضح مثال على ذلك أحداث غزوة بدر، فقد استنفد الرسول ﷺ كل الوسائل المتاحة له بوصفه رسولاً وقائداً ومحارباً، ويتضح من مسار المعركة أن الدعاء جاء بعد استكمال كل الاستعدادات، بل قبيل المواجهة الحاسمة بلحظات، وتدل سير الأنبياء عليهم السلام على سيرة أو سلوك مشابه، ويأتي الدعاء في المسائل المقدور عليها من قبل الإنسان لطلب التسديد والتوفيق وإصابة ما يقع في دوائر النفع الحقيقي للإنسان في دنياه وآخرته.

حاول أخي القارئ، أن تتذكر الأدعية التي تضج بها مساجدنا في رمضان، فستجد أن الدعاء قد حمل ما لا يحتمل، ووضع في غير موضعه، بل قد يقع بعض الدعاة في عبارات تشي بعقائد أهل الجبر، وهو لا يشعر.

كيف نميز بين ما هو في مكنتنا، وما ليس في إمكاننا؟ لا شك في أن هذا أمر ليس باليسير، غير أنه يجب أن يستقر في أذهاننا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن استنفاد الأسباب واجب على القادرين؛ لكي يؤدي الدعاء دوره.

ويبدو أن الدعاء في الأحوال الاعتيادية، وليس المعجزات الخاصة لا ينقل الإنسان من دائرة غير الممكن إلى دائرة الإمكان، ما الذي يعنيه هذا القول؟ تصور أن إنساناً يرغب في إنجاب ذرية، فهل تتوقع له استجابة لو ظل يدعو بالليل والنهار وهو غير متزوج، الزواج مقدمة أساس لحصول الذرية، وهو الذي ينقل الداعي إلى دائرة الممكن، وعلى هذا يمكن قياس الحالات الأخرى.

يؤلمني جدًّا عندما أسمع أحد أئمة الحرم المكي، وهو يردد في العشر الأواخر من رمضان "اللهم، حرر المسجد الأقصى"، فشعر بخجل عظيم من الرب تبارك وتعالى، حتـى إنني لا أؤمن على هذه الدعوة، فهي عندي شـديدة الشـبه بـما يحكى عن اليهود عندما قالوا: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾.

والحديـث عن الدعاء والمسـاجد لا بد أن يجرنا إلى إسراف بعض أئمة المسـاجد في تكلف الأسـجاع، حتـى لو أخرج الدعاء عن مقصده، بل ربـما أوقعت الداعي في نقيض مطلوبه.

تأمـل أخي القـارئ، في بيت الله الحـرام، وفي العشر الأواخر مـن رمضان، وفي دعاء ختم كتاب الله، يدعو إمام الحرم المكي بقوله: «اللهم، ألبسنا به الحلل وأسكنا به الظلل» يقصد القرآن الكريم، والمعلوم عند أي متدبر للقرآن الكريم أن الظلل والظلة تأتي دوماً في سياق العذاب والعقاب والحساب والتخويف، وقد وردت غير مرة:

كقوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴾ وقولـه تعـالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾. ولا شـك في أن نيـة الإمـام حسـنة، ولربـما كان يقصد الظلال، ولعل برمجته الذهنية المتجهة نحو الأسـجاع قد أفقدته الإحسـاس بالمعاني، وكثيراً ما تسـمع المصلـين يؤمنون على هذه الدعوة أو غيرها، ويبكـون دون أن يفقهوا معناها، وإنما يأخذهم النحيب والبكاء على الألحان والأسجاع، وقد مر بهم منذ لحظات كلام الرب -عزوجل- الذي لو أنزل على جبل لخشع، وتصدع، ولا يحرك لهم ساكناً.

٩ زمن استباق الخيرات ويوم الفصل

obeikandl.com

obeikandl.com

زمن استباق الخيرات ويوم الفصل

يمر قارئ القرآن الكريم، بمجموعة من الآيات تدل على أن الله سبحانه وتعالى، سيفصل في اختلافات الناس بشكل قطعي ليس في هذه الحياة الدنيا، وإنما بحسب النص القرآني القاطع يوم القيامة، لنتدبر الآيات الآتية:

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.
- ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

أما في هذه الحياة الدنيا فالأمر الإلهي واضح، وهو استباق الخيرات، بين مختلفي العقائد، وهو ما نصت عليه آيتا البقرة والمائدة، بل ختمت آية المائدة بأننا سنرجع إلى الله، ثم ينبئنا عما اختلفنا فيه.

- ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.
- ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

openkanal.com

لا بـد أن كل مـن تربـى على عقيـدة وتصور للإيمان سـيكون في الغالب شـديد الالتصـاق بـه والوثوق فيه، ومـن ثم لا بد من أن ندرك أن من غير المفيد أن نتشـاجر حـول اختلاف تصوراتنا وعقائدنا، حيـث إن هذا لن يؤدي إلى الفصل، فالفصل بين هذه العقائد سـيتم يوم القيامة من رب لا يخفى عليه شيء، وهذا لايعني أن الإنسـان الـذي اجتهـد في بناء إيمانه وتحقيـق عقيدة وتصور يثق بهما أن يتخـلى عن الدفاع عنها أو أن يـترك الدعـوة إليهـا، بل هـذا الأمر مندوب، غـير أن المطلـوب ألا يتعدى هذا الجهـد إلى بخع النفس أ و إهلاكها، أو قتال النـاس وحرمانهم حقوقهم، ويؤيد ذلك أن عقول الناس لا تسـتطيع الوصول إلى فصل في العقائد، مهما بذلت، ومهما تقاربت هذه العقائد، فلو اجتمع أشـعري وسـلفي، وكلاهما تحت مظلة ما نسـميه أهل السنة والجماعة، وأمضيا سـنين في الحوار حول الصفات لخرج كل واحد منهما أشـد تمسكاً وقناعـة برأيـه، ومـن ثم فالفصـل في العقائـد تكفل به الخبـير العليم، وأجَّلـه إلى يوم القيامـة، إذاً مـا الذي نعملـه الآن؟ الجواب نتسـابق بالخيرات، وهنـا ملحظ في غاية الأهميـة، وهـو اتفاق عقول البـشر على هذه الخـيرات، فكل الشرائع السـماوية تدعو إلى الصـدق، وتحـرم الكذب، وتدعو إلى العفة، وتحريم الزنـا، وتدعو إلى البر، وتنهي عن العدوان، وهكذا إذاً، فمن يسرف في الجدال حول سـلامة معتقده، وخطأ معتقد الآخرين، ويهمل استباق الخيرات، فقد نقل الأمر الإلـهي من وقته إلى وقت آخر.

وكذلك من يَدِلّ على الناس بسـلامة معتقداته، ويستهين بالأعمال الصالحة التي يقـوم بها الآخرون، ويجزم أنها سـتكون هباءً منثوراً. لا بد من أن قـراءة متأنية متدبرة للذكر الحكيم ستجعلنا نعيد النظر في كثير من مسلماتنا حول ما نسميه سلامة المعتقد.

وهناك من يرى أن كل من أفرغ وسعه وجهده، وأعمل فكره، وما أعطاه الله من فهم، في الوصول إلى عقيدة ما، واعتنقها دون مكابرة، أو تحقيقاً لمصلحة مرجوة، فهو معذور مأجور، وذاك نهج وسطي يقرب العقول والقلوب، ويحشد الموارد والجهود.

تأملات في النفس

١. الحسد.
٢. تقدير الذات.
٣. المنطق.
٤. الترف.
٥. الضحية.

obeikandl.com

obeikandl.com

١ الحسـد

obeikandl.com

obeikandl.com

الحسـد

منذ القدم فطن الحكماء إلى أن مشاعر التعاطف مع مصاب إنسان آخر أسهل على النفس البشرية من مشاعر الفرح لنعمة نزلت به.

الكثير من الناس يجدون صعوبة في الاستبشار عندما يسمع خبراً سارًّا لقريب أو صديق أو زميل، ويشترك السواد الأعظم من الجنس البشري في هذه المشاعر لحكمة و ابتلاء من الخالق – عزوجل – هكذا تمت برمجتهم الذهنية، مع اختلافات بين البشر بحسب تربيتهم وثقافة مجتمعاتهم وجيناتهم أيضاً، وهذا لا يعني الاستسلام لهذه المشاعر واعتبارها أمراً طبيعيًّا، بل من المهم مجاهدة النفس على مغالبة ذلك الخاطر الرديء ودفعه.

والحسد حقيقة بشرية لا يمكن تجاهلها. وبحسب تعريفه البسيط، كما هو متداول في تراثنا العربي والإسلامي أنه: كراهية حصول المحسود على نعمة وتمني زوالها.

أما «وبستر دكشنري» فينقلنا إلى النظر من زاوية أخرى للحسد، حيث يعرفه بما يمكن أن يترجم بالآتي:

«الألم والامتعاض، حين تعلم بوصول منفعة إلى إنسان آخر مع رغبتك في الحصول على المنفعة نفسها».

لاحظ إضافته لتمني الحصول على المنفعة أو النعمة، في حين الرؤية في تراثنا تنصب مع الكراهية على تمني زوال تلك النعمة أو المنفعة.

obeikandl.com

شـيخ الإسـلام ابن تيمية يوسـع دائرة الحسـد بشـكل أكبر، إذ يقرر أن الحسد: مجرد الكراهة والبغض، لما يرى من حسـن حال المحسـود، سواء تمنيت زوال النعمة، أم لم تتمنَّ ذلك.

يحار كثير من الباحثين حول الفرق بين الحسـد والغيرة، وإن كان الغالبية يعتقد أنهـما يتجهـان إلى النتيجـة نفسـها، وإن كانت الغـيرة ترتبط بشريحة النسـاء من حيث استخدام المفهوم في السياق الثقافي والمحيط الاجتماعي.

ويُعدّ الحسد من أعظم الخطايا البشرية وأقدمها وأكثرها تكديراً لسعادة الإنسان، بل إنها في حكم الإسلام كبيرة من كبائر الذنوب ومحبط من محبطات الأعمال.

وسـنحاول في هذه التأملات التعرف إلى طبيعة الحسد أو «سيكولوجية الحسد» إن صـح التعبـير، وما الوظيفة التي يقوم بها هذا الشـعور؟ وهـل بالإمكان التخلص منه، أم لا؟

إن أول مشـكلة تواجه المتأمل والباحث في هذا الموضوع هي النفور الشديد منه وصعوبة الشروع في حديث عنه، وكأن الناس لا تقبل حتى مناقشـته أو التأليف فيه، وأعتقد أن مصدر ذلك يعود إلى أنه شعور يصعب تبريره.

فبينـما يتحمـل أحـد النـاس أن يوصـف بالبخـل، ويـبرر ذلك على أنـه تخطيط للمسـتقبل وحفـظ لحقوق الأولاد أو بالجبـن، ويبرره على أنه تعقـل لتحقيق أهداف أبعد ورغبة في البقاء من أجل الآخرين، على الرغم من تهافت هذه التبريرات إلا أنه، أي الموصوف بالجبن أو البخل، لايرضى مهما كان الثمن وصفه بالحسد أو أنه ذو عين حاسـدة، وذلك لسـبب بسـيط جدًّا، وهو أن الحسـد شـعور لا يمكن تبريره، فكيف تفسر كراهية وصول نعمة إلى إنسان آخر؟ إنه شعور محير جدًّا.

ومـن أبرز دلائـل نفور المجتمعات من هـذا الداء عدم وجـود مرادفات لكلمة حسـد، فعلى سـبيل المثـال كلمة حب (المقبولـة للنفوس والمرغوبة مـن الجميع) تجد لهـا عـشرات المرادفات، وإن كانـت بدرجات مختلفة لنفس الشـعور (هيام ــ غرام ــ ولـع... إلخ)، أما الحسـد فلا مـرادف على الإطلاق، فقط يختلـط مفهومه عند الناس بكلمة الغيرة.

وفي القرآن العظيم وردت هذه الكلمة في مرات قليلة نادرة قد لا يشاركها هذه الندرة أي شعور إنساني آخر، أربع مرات فقط وردت فيها هذه الكلمة: مرتان في حق أهل الكتاب ومرة في الفلق؛ للاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد.

وفي السـنة النبويـة كذلك لا تمر هذه الكلمـة إلا لماماً، وفي إحدى المرات ذكرت بصيغة عجيبة، فقد خرَّج البخاري ومسـلم حديثاً عن النبي ﷺ أنه يقول: (**لا حسد إلا في اثنتين**...) وهـو حديـث يحتاج إلى تأمل، فالمرء يسـتغرب من اسـتخدام لفظة حسـد وإباحته في هاتين الحالتين، وهو في الحقيقة يحتاج إلى تحليل لغوي، وربما تحليل ثقـافي نفسي معمق، فتعريف الحسـد هـو كراهة وصول النعمة إلى المحسـود، فكيف يستقيم المعنى هنا؟

أمـا في موروثنا العربي والإسـلامي فلم يفرد كتاب خاص بالحسـد فحسـب ما توافر لدي من معلومات، بل يأتي ذكره في مواضع متفرقة أو رسـائل متناثرة تأتي على سبيل الوعظ والتحذير منه وتبيان خطورته، وقد ركزت الأدبيات التي تبحث في هذا الموضوع على ربط الحسد بالعين ووسائل الحماية من ذلك والمعالجة عند الشك في وقوع هذا الأمر، ولعل اسـتئثار الوعظ والتحذير من مغبة الحسـد جاء على حساب البحث في طبيعـة هـذا الداء والوظيفـة التي يؤديها، وسـبيل معالجته في النفس الحسـود التي نادراً ما يتم التطرق إليها، وتدور بقية المعالجات حول تبشـيع هذا الصنيع ليس أكثر.

obeikandl.com

وسـأعرض طائفـة مـن أبـرز آراء أئمة عـصر التأليـف الكلاسـيكي في التراث الإسلامي:

في «**إحياء علوم الدين**» يوجه أبوحامد الغزالي نصيحة لمعالجة الحسـد تتمثل في مدح المحسود والإحسان إليه وقسر النفس على ذلك.

وقبل ذلك يجمل أبوحامد مداخل الحسد في سبعة أبواب، كما يأتي:

«ومداخله كثيرة جدًّا، ولكن يحصر جملتها سـبعة أبواب: العداوة، والكبر، والعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسـة، وخبث النفس، وبخلها".

ثم يضع أبو حامد اجتماع هذه الأسـباب أو أكثرها أو أقلها مقياساً لمدى تعاظم الحسد أو خفوته في النفس، فيقول:

«وقـد يجتمع بعض هـذه الأسـباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد، فيعظم فيه الحسد بذلك، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة، بـل ينتهـك حجـاب المجاملـة، وتظهـر العداوة بالمكاشـفة. وأكثر المحاسـدات تجتمـع فيها جملة من هذه الأسباب وقلما يتجرد سبب واحد منها».

ثم يغوص أبوحامد على طبيعة الحسـد، فيعرض إلى السبب وراء: أن التحاسد لا يكون إلا بين الأمثال والأنداد:

«وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات، ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه، فعند ذلك يريد أن يستحقره، ويتكبر عليه، ويكافئه على مخالفته لغرضه ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه وتترادف جملة من هذه الأسباب، إذ لا رابطة بين شخصين في بلدتين متنائيتين، فلا يكون بينهما محاسدة، وكذلك في محلتين نعم إذا تجاورا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها، أغراضهما، فيثور من التناقض التنافر والتباغض، ومنه تثور بقية أسباب الحسد، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر... إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين، بل متناسبين، فلذلك يكثر الحسد بينهما».

ثم يدخل دخول الخبير على العلاج منطلقاً من حقيقة الحسد، حيث يقول:

«فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل. ولهذا لا ترى

النـاس يتحاسـدون على النظـر إلى زينة السـماء، ويتحاسـدون على رؤية البسـاتين التـي هي جزء يسـير من جملـة الأرض، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السـماء، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصـار، فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلاً. فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشـفقاً أن تطلب نعمـة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لهـا، ولا يوجـد ذلـك في الدنيـا إلا في معرفـة الله -عـز وجـل- ومعرفة صفاتـه وأفعاله وعجائب ملكـوت السـماوات والأرض. ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً».

ونختم بهذه الإشارة المهمة من كلام أبي حامد:

«فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد».

ابن رجب الحنبلي في كتابه النفيس «جامع العلوم والحكم» يحلل نفسية الحاسد، فيقول:

«الحسـد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير أو يساويه فيه؛ لأنه يحب أن يمتاز على الناس بفضائلـه، وينفـرد بهـا عنهـم، والإيـمان يقتـضي خلاف ذلك».

obeikandl.com

ويقول عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾:

«قـد فسر ذلك بالحسـد، وهو تمنـي الرجل نفس مـا أعطي أخـوه من أهل ومـال، وأن ينتقل ذلك إليـه، وفـسر بتمنـي ما هـو ممتنـع شرعًـا أو قدرًا كتمني النساء أن يكنّ رجالًا أو يكون لهن مثل ما للرجال مـن الفضائل الدينية كالجهاد، والدنيوية كالميراث والعقل والشهادة، ونحو ذلك».

أمـا ابـن الجـوزي فقد حاول تأمل طبيعة الحسـد مخالفـاً من ينعتهـم بالمبالغين الذين يعتقدون أنه لا يحسد إلا شرير يعادي نعمة الله، ولا يرضى بقضائه، ويبخل على أخيه المسلم، فيقول:

«فرأيـت في هـذا، فما رأيتـه كما يقولـون، وذاك أن الإنسـان لا يحـب أن يرتفع عليه أحـد، فإذا رأى صديقـه قد علا عليه تأثر هـو، ولم يحب أن يرتفع عليـه، وودّ لـو لم ينـل صديقه ما ينـال أو أن ينال هـو ما نـال ذاك؛ لئلا يرتفع عليـه، وهذا معجون في الطـين ولا لـوم على ذلك، إنما اللـوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل».

وينقل ابن قدامة المقدسي في كتابه مختصر «منهاج القاصدين» فلسفة ابن سيرين -رحمه الله- عن الحسد، فيقول:

obeikandl.com

«...وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار».

شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى يرشد الحاسد والمحسود إلى الواجب في حالهما؛ فيقول:

«ثم هذا الحسد، إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالمًا معتديًا مستحقًّا للعقوبة إلا أن يتوب، وكان المحسود مظلومًا مأمورًا بالصبر والتقوى، فيصبر على أذى الحاسد، ويعفو ويصفح عنه، كما قال تعالى: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فأعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره))».

ابن القيم -رحمه الله تعالى- يعدّ الحسد نوعاً من معاداة الله، فيقول:

«الحسد نوع من معاداة الله، فإن الحاسد يكره نعمة الله على عبده، وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه، والله يكره ذلك، فهو مضاد لله تعالى في قضائه ومحبته وكراهته».

obeikandl.com

ويفسر بكر بن عبدالله المزني الذنب الذي اقترفه الحاسد في لفتة تهكمية جميلة، فيقول:

«ذنبـك عند الحاسـد دوام نعمة الله – عز وجل – عليك».

ويشرح الحسن البصري كيف لا يضر الحسد، حين سأله سائل:

«أيحسـد المؤمن؟ فقال: ما أنساك إخوة يوسف لا أبا لك؟! ولكن عمه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً أو لساناً».

طبيعة الحسد:

حاولـت جاهـداً أن أبحث عن طبيعة الحسـد وأسـباب نشـوئه وهـل من دور يؤديـه؟، أي تلمـس حكمة الباري –عز وجل– في ملازمته للنفس البشرية، والحقيقة أن المصادر التي تبحث في هذا الموضوع شـحيحة، غير أني هديت إلى موسوعة كبرى عن الحسد أنجزها عالم الاجتماع الألماني «هلمت شوك « ونشرها في كتاب تحت عنوان: (الحسـد، نظرية في السـلوك الإنسـاني) والكتاب لـو ترجم إلى اللغـة العربية، لأثرى المكتبـة العربيـة في مثل هـذا الموضوع، وهذا الكتـاب الذي يقع في أزيـد من (٤٠٠) صفحة ثري جداً بالمباحث حول موضوع الحسد، مثل: الحسد في اللغة، سيكولوجية الحسـد، الحسد والعين، الجرائم المرتبطة بالحسد، الحسد بوصفه موضوعاً فلسفيًّا، ولم يغفل هذا العالم عن إجراء بحث في كتابه حول الحسد وأثره في السياسة.

وإن هناك فصلاً مشوقاً جدًّا حول مجتمع يوتوبي، وهو محاولة إحياء ما يشبه «الكيبوتز اليهودي» لخلق مجتمع خالٍ من الحسد.

obeikandl.com

يقول هلمت شوك:

«إن الظاهـرة التـي نصفهـا بكلمـة حسـد هـي عملية سـيكولوجية أساسية لافتراض أي وجود اجتماعي، (وجود اثنين أو أكثر من الناس...)».

من أجمل التفسـيرات التي أوردها هذا العالم لحكمة الحسد هو تشبيه الحسد على المستوى النفسي بالجاذبية الأرضية على المستوى المادي.

الحسد على مسـتوى المجتمع ينظم تصرفات الأفراد، ويربطها بمرجعية معينة، تشبه تنظيم الجاذبية لحركة المادة على كوكب الأرض.

وأثبتـت البحوث، أن الحسـد غائر في أعـماق المجتمعات البشريـة، حيث دلت استكشافات القبائل البدائية في البرازيل وإفريقيا على وجود درجات عالية من الحسد، ويمكن أن نستفيد من معلومة مهمة في هذا الخصوص، وهي أن الحسد في المجتمعات سريعة التحول أكثر انتشاراً من المجتمعات المستقرة، ويؤيد هذه الحقيقة اعتقاد سائد وشـائع بـين العامـة الآن، أن الناس أصبحوا أكثر حسـداً من قبـل، فإن صحت هذه النظـرة الاجتماعية فهي تعزز اعتقاد الناس، حيث أدت الطفرات الاقتصادية المتوالية والاختراقات الطبقية إلى ارتفاع شديد في وتيرة الحسد وضراوة هذا الشعور.

الحسد سيظل موجوداً ما بقي اثنان من بني آدم على هذه الأرض، فنحن نعرف الآن أن وظيفـة الحسـد جـزء من حكمـة الباري لابتلائنـا به، غير أن هنـاك كثيراً من الإدراكات التي لو صححت لخففت من هذا الشـعور، سـواء في شدته أو تكراره، إن من أهم الإدراكات التي يلزم تصحيحها هو أن هوية الإنسـان وقيمته يجب أن تنفك عن إنجازاته وممتلكاته، لا شيء يثير الحسـد من وجهة نظري مثل الشـعور بالدونية،

ومبعث الشـعور بالدونية هو المقارنات، وقد وقع الإنسان في فخ المقارنات منذ وجد على هذه الأرض، فقد حسد قابيل هابيل؛ لأنه قارن بين مدى قبول الرب -عزوجل- لقربان هابيل وعدم قبول قربانه.

وقد اطلعت على كتاب للقس الأمريكي «بوب سورج» عنوانه: «الحسد العدو الداخـلي»، وأثـار دهشـتي إلى أي مدى يعيش القساوسـة في بلد كالولايـات المتحدة الأمريكية هاجس الحسـد، يستشـهد هذا القس بمقالات عـدة لربط أحداث ٩/١١ بالحسـد، وقد أورد عـدداً من عبـارات الكنديين والروس واحتفال بعض المسـلمين بالأحداث بوصفها دليلاً على وجود الحسد بوصفه سبباً لهذه الأحداث بحسب ظنه، ويذهـب هـذا القس بعيداً في تحليلاته إلى درجة يربط فيهـا الصراع الراهن في الشرق الأوسـط بين العـرب والإسرائيليين، بحسـد مزعوم بين إسـحاق وإسـماعيل عليهما السـلام، قبل أربعة آلاف سـنة، ويخلص هذا القس في تحليله إلى أنه مهما كانت الأمور فإن الشيء الواضح له هو أن العالم مليء بالحسد.

ويؤكد القس بوب سورج أن طاقات الحسد تتولد من قلب مليء بتحقيق الذات والطموحات الشخصية، ويعتقد أن الحسد وتحقيق الذات يضلل كل منهما الآخر.

ويشـير أيضـاً هذا القس بشيء مـن الدقة إلى أن مما يثير الفضول أن الحسـد يتبع الخطـوط الجندرية (الجنسـوية) وهو محـق في ذلك إلى حد كبير، حيث يحسـد الرجال الرجال والنساء النساء.

ويلحظ هذا القس إحدى أوضح خصائص الحسـد، وهي التخفي، حيث دائماً ما يقدم أو يظهر الحسد نفسه في أشكال مختلفة، وقد يجهل لأنه يتلبس ببعض المشاعر النبيلة كإسداء النصح.

ويستشهد هذا القس بنصوص من الكتاب المقدس بوصفها وسائل لعلاج الحسد وأهمها حقيقة ما ورد على لسان كلوسينياس بأن تبرمج ذهنك على الالتفات إلى الأشياء العلوية، ولا تنظر إلى الأشياء الأرضية وبحسب هذا القس، فكلما ارتفعت أهدافك إلى السماء انحسرت المنافسة، وانعدمت مساحة تحقيق الذات، ومن ثم ينعدم الحسد.

تأمل تشابه رأيه إلى حد التطابق مع أبي حامد العزالي، ويضع هذا القس قاعدتين للأهـداف: إحداهما تنتمي للعالم الأرضي، والأخـرى تنتمي للعالم العلوي، حيث لا منافسة ولا حسد.

ومـن أجمـل ما يقدمه هذا القس من نصائح هو رأيه عن الهوية، فيقول بما يمكن ترجمته على النحو الآتي:

«خلقنـا الله، ولدينـا حاجـة لنعـرف مـن نحـن والسـعي لمعرفـة هويتنـا ليـس ذنبـاً، ولكـن الطريقـة التـي نسـعى بهـا إلى ذلـك قـد تكـون ذنبـاً، إن الحصـول عـلى هوية مـن الأشـياء التي نعملهـا أو الأشـياء التـي نملكها لن تمـلأ الفراغ الروحي الـذي نحس به، والـشيء الوحيد الذي سيشـبع حاجتنا هـو الارتبـاط بمحبـة خالقنا».

كلفني أحد الأصدقاء، بإحضار مجموعة مترجمة من مشروع الترجمة المصري في أثنـاء وجـودي بالقاهرة عام ١٤٢٢هـ، وعندها لفت انتباهي عنوان مثير عن الحسـد عنـد الإغريـق، وقد تبـين لي بعد الاطلاع على الكتـاب، أن هناك تشـابهاً بين الراعي الجركـسي في جبـال أثينا قبل (٣٠٠٠) سـنة وأعرابي الصحـراء في الجزيرة العربية في زماننـا الراهن، فكلاهما لا يسـعده أن تمدح غنمه، وإن شـك في نظراتك بصق ثلاث مرات، وما إلى ذلك، وهذه بعض الاقتباسات من كتاب الحسد عند الإغريق:

obeikandl.com

«ويـرى الإنسـان الجركـسي أن البـشر ليسـوا متسـاوين، مثـل أصابـع اليديـن، والأشـخاص الأقل حظًّا والأقل شرفاً يحسـدون من يفوقونهم حظًّا وشرفاً. وسوف يقودهم الحسد إلى الخديعة والمكر بشكل مباشر».

«.... إن قـوة العـين الحسـود تكمـن في جـذب الأشـياء المحسـودة. ومـن المهـم أن الأطفـال والقطيـع، وهما أهم ركنـين في المكانة الاجتماعية للإنسـان، كانا أكثر الأشـياء عرضة للهجوم. إن الرجـال الناجحـين، وبصفـة خاصـة الناجحين للغاية، هم المعرضـون للخطر. ومن الأمور التي لا تسـعد الرجـل الجركسي أن يقال لـه: إن قطيع أغنامـه في حالـة ممتـازة. فمـن المعتقـد أن المـدح والإعجـاب يشـيران إلى رغبة المعجـب، حتى لو كانـت غـير معتمدة لامتـلاك الأشـياء التي ترى عينـاه أنها جميلـة، وحيث إن امتلاكها مسـتحيل، فـإن الحسـد يـلي الشـعور بالإحبـاط. وحيث إن العـين الحسـود قد تحسـد بطريقـة غـير متعمدة، فإنـه ما من إنسـان يكـون متأكداً من أنـه قد يؤثر في وقـت مـن الأوقـات في النـاس الآخرين أو في ممتلكاتهـم أو حتى في نفسـه. ويضيـف كامبل أن البصـق ثـلاث مـرات عـلى الشـخص أو الشيء الذي يثير إعجاب المرء هو إجراء احتياطي فعال ضد الحسد».

«... الشخص المؤمن بالخزعبلات يبصق إذا ما رأى رجلاً مجنوناً أو مصاباً بالصرع. إن الاحتياطات التي يقوم بها المرء ضد عين الحسود أمر مسلم به، مثلها مثل الإيمان بالعين الحسود نفسها، وعلى الرغم من تقدم التعليم وتزايد الرخاء فإن المعتقدات والممارسات المتعلقة بالسحر مستمرة...».

الحسد وعلم الاجتماع:

علماء الاجتماع يعولون على قانون الندرة؛ لكونه سبب نشوء الحسد في المجتمعات البشرية، فمادام أن هناك قدراً محدوداً من أي بضاعة أو مادة فإن الشعور بالحسد سيكون طبيعيًّا عند الحصول على قدر من هذه البضاعة، حيث إن ذلك سيكون على حساب الآخر.

وعلى هذا الأساس، فإننا لا بد أن نستنتج إن صحت تحليلات علماء الاجتماع أن الحسد سيزداد كلما قلت الموارد، وهو ما تؤيده المشاهدة، ولا نملك معلومات بحثية تطبيقية تدعم هذا الاستنتاج.

ويلاحظ هلموت شوك:

«وقد بشرت الماركسية بمجتمع خالٍ من الحسد، عندما يسود توزيع متساوٍ للموارد بين الناس، ويبدو عسيراً على أي متأمل أن يلاحظ أن المجتمعات التي حاولت تطبيق النظريات الشيوعية قد استطاعت أن تحل مشكلة الحسد[١]».

(١) هلمت شوك: ص ٥

الحسـد يظهر بين الأشخاص المتسـاوين أو شبه المتساوين، ولكن هذا لا يتعارض مع فكرة أن المسـاواة تزيل مشـاعر الحسـد، وأن الأشخاص المتسـاوين الذين يتعرضون لحسـد أقرانهم ليسوا متسـاوين بالمعنى المطلق للكلمة، وإلا ما أثاروا حسد زملائهم، فقـد كانـت الديمقراطية تمنـح للمواطنين درجـة جزئية من المسـاواة وبمرور الوقت شـجعت المسـاواة السياسية على المطالبة بمسـاواة في الفرصة ومساواة في الملكية، فإن ذلـك الاتجاه يصبح مداناً سياسـيًّا، وأن يطالب معارضوه، كما يحدث اليوم، بتسـمية إحدى الفئات المنشـقة باسـم «سياسـات الحسـد» في حين يطلقون على الاتجاه الآخر اسم «العدالة الاجتماعية».

الحسد وعلم النفس:

أمـا علماء النفس فيرجع بعضهم منشـأ الحسـد إلى مرحلة الطفولة بـين الأقران، وأن السـبب في ارتباط الحسـد بالعنصر البشري هو طول مرحلة الطفولة، وتنمي المنافسة هذا الشعور، وتدعمها الطموحات لتحقيق الذات.

ويرتبط الحسد ارتباطاً وثيقاً بالمقارنات، حيث ينزع كل إنسان إلى أن ينظر إلى ما عنده من نعم، ويقارنها بما عند الآخرين، وقد عبرت حكيمة فرنسية عن هذا بقولها:

«إن النـاس لايهمهـم أن يكونـوا أغنيـاء، وإنـما يهمهم أن يكونوا أغنى من غيرهم».

كيف يقع الإنسـان في مأزق المقارنات؟ وهل له مصلحة في ذلك؟ يجيب بعض علـماء النفس عـن ذلك مرجعاً السـبب إلى حالـة الطفولة، حيث وجد الإنسـان لذة عندما وجد نفسه أفضل من غيره في أحد الجوانب، ومن ثم أدمن على هذا التصرف؛ لعلـه يجد تلك اللذة، ويسـمونه الدعم الإيجـابي لهذا التصرف، ويعـبر الدكتور ماثيو ماكي عن ذلك في كتابه «تقدير الذات» بقوله:

obeikandl.com

«إن معظم جهود مقارنة نفسك بالآخرين تجعلك تشـعر بأنك أقل كفاءة، ولكن تلـك المرات التي تكـون لها مردود، وتحصل لها عـلى الدعم، حيث تبـدو الأفضـل بالمقارنـة تجعلـك عالقـاً في عـادة المقارنة تلك».

وقد وصلنا هدي المصطفى ﷺ حول المقارنات في تقرير نبوي بظهور المقارنات في المشـهد الإنسـاني، فالإسـلام لايقفز على الحقائق إزاء المشـكلات، بـل يعترف بها بشـكل عقـلاني، ويضع جملة مـن العلاجات المتكاملة للمشـكلات، وقد تجسـد هذا النهج على سبيل المثال في حديث أبي ذر رضي الله عنه: «**انظر إلى مَن هو تحتك، ولا تنظر إلى مَن هو فوقك، فإنه أجدر ألا تزدري نعمة الله عندك**». والرسول ﷺ وهو الذي لاينطق عن الهوى يدرك مدى التصاق النفس البشرية بالمقارنات، فهي في الواقع ثمن ونتيجة طبيعيـة لحيـاة الإنسـان الاجتماعية، غير أن من المهـم أن تدرك حجم التأثير السـلبي للإفراط في المقارنات، حيث إنه في كل شـأن من شـؤون الحياة سـتجد من هو أفضل منك، ومن ثم سيصاحبك غم لا ينقطع.

إن تعزيـز فرديـة الإنسـان مهم جـداً لوضع المقارنـات في حدهـا الأدنى، ذكر نفسـك دائماً بأنك مخلوق لله خلقك -عزوجل- متفرداً جسـداً وروحاً، لا تشبه أحداً أبداً، ولا يشبهك أحد أبداً، حياتك مثل بصمتك ليس لها مثل.

أظهر اسـتطلاع طريف أن نصف الألمان يعتقدون أنهم يعيشـون في مجتمع يتميز «بالحسد والغيرة» وبلغت النسبة في شرق البلاد ٥٧٪. وقالت نسبة ٣٣٪ من الألمان: إن النسـاء أكثر حسـداً وغيرة من الرجال، وأيدت ذلك نسـبة ٤٦٪ من النسـاء، فيما اعتبرت نسبة ستة في المئة أن الرجال أكثر حسداً.

خطوات لمواجهة شعور الحسد:

في ضـوء تأملاتي عن الحسـد وظهـوره في الخريطة البشرية، رأيـت أنه من المفيد وضع خطوات عملية من شـأنها تقليل هوامش الحسـد وتضييق دوائره على المستوى الفردي والجماعي، وتتمثل تلك الخطوات في الآتي:

١. تجنب الفضول الاجتماعي؛ فهو الباب الأوسـع لتسـلل مشاعر الحسد، لا ترخِ سمعك لمن يتحدث عن الناس دون فائدة.

٢. اضبط الخلطة عند حدها المفيد.

٣. عندما تتسـلل إلى عقلك مشاعر الحسد، حال سماعك خبراً عن وصول نعمـة إلى أحـد من الناس " غالباً سـيكون قريباً منك " بادر إلى تصحيح إدراكات العقل الحاسد على النحو الآتي:

- إن هـذه هي قسـمة الله تعالى بـين خلقـه، وحكمته تامة وعلمـه كامـل، فـارضَ بقضـاء الله وقـدره، واعلـم أنه أرحم بعباده من أنفسهم.
- الشـخص الذي وصلـت إليه هذه النعمـة لا ينظر إليك بدونية أو انتقاص؛ لأن هذه النعمة لم تصل إليك.
- تقديـرك لحجـم هـذه النعمـة يختلـف عن حجـم تقدير المتلقي لها، ولو وصلت إليك لكانت أقل قدراً مما تظن.
- إن النعم تتناقص قيمتها مع مرور الوقت.
- نعـم الله لا تحـصى، ولا يمكـن الإحاطـة بهـا، فـإن كان قـد وصـل إلى أحد مـن النـاس نعمة لم تصلك، تحسـده عليهـا، فتذكـر حجـم النعم التـي لديـك، ولم تصل إلى ذلك الشخص، وما دفعه الله عنك من النقم، وهذا بحد ذاته نعمة.

obeikandl.com

- إنـك لا تعلـم مـا فقد ذلك الشـخص الذي تحسـده من النعم التي لديك.

٤. عندمـا تفقـد نعمة مـا، فقد تكون هـذه النعمة (المفقـودة) هي الحارس الأمين لبقية النعم.

٥. تذكر أن الحسـد أشـبه ما يكـون بالاسـتدراك على مشـيئة الله وحكمته في قسـمة فضلـه ورحمتـه والله -عـز وجـل- يقـول: ﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾. فإذا كان الرؤسـاء من البشر في الحياة الدنيا يمقتـون من يعترض على قرارتهـم أو طريقة إدارتهم للموارد (ولله المثل الأعلى) فكيف نجرؤ على الامتعاض من إرادة الحكيم العليم؟!

٦. وتذكـر أيضاً أن الحسـد لهيب يحرق صاحبه، نفسـيًّا ودينيًّا، واسـترجع حقيقة أن الإسلام شرع لنا نهجاً إنسانيًّا فطريًّا راقيًّا، وهو «الغبطة» التي تعني استحسان ما لدى الآخرين وتمني تحصيله دون الرغبة في زواله.

بقـي موضـع تأمل أختم به هذا الفصل، وهو قول الله تعالى في سـورة الفلق: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾. إلا يمكن لنا أن نفهم من هذا الاستدراك القرآني العظيم في الاسـتعاذة من الحاسـد بإضافة إذا حسد بأن هناك مرحلتين، فليس كل حاسد يحسد، فقـد يكون من طبع الإنسـان أنه حاسـد، ولكنه لا يحسـد، وربما نسـتطيع إرجاع هذا الفهم إلى علم النفس لنقول: إن التصرفات البشرية تدور حول ثلاث مراحل:

١- الإدراك.

٢- ثم الاستجابة وتشكل الاتجاهات.

٣- ثم النزوع السلوكي.

obeikandl.com

بمعنى أنه إذا توقف الإنسـان قبل مرحلة النزوع، وتشكل الاتجاهات الحسدية، فقد يكون معفى من ذنب الحسـد، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، خصوصاً أن ذلك يتطلب مجاهدة للنفس، ومن ثم فلا تسـتبعد حصول الإنسـان على ثواب نظير مدافعة الخواطـر الرديئـة ذات العلاقة بالحسـد. أما غيـاب المجاهدة في النفـس، فإنه قد ينقل الإنسان إلى أن يتصرف للتأثير في وصول نعمة ما إلى المحسود، وهنا الإشكالية الكبرى.

obeikandl.com

obeikandl.com

٢ تقدير الذات

obeikandl.com

obeikandl.com

تقدير الذات

تسير بسيارتك في أحد الشوارع خلف سائق غير مبالٍ يغير المسار الذي يسير فيه دون سابق إنذار، ويتباطأ بشكل شديد بصورة مفاجئة، ولا يلتزم بقواعد المرور، فتستشيط غضباً، وتتمنى أن تبطش بهذا السائق، ثم تحين فرصة لك لتجاوزه، وعندما تتجاوزه تجده رجلاً طاعناً في السن يمسك المقود بكلتا يديه معه عجوزه، ويتطلعان يمنة ويسرة بذهول، كأنما يبحثان عن شيء مفقود، فتنفرج أساريرك، وتخف حدة الغضب عندك بشكل مفاجئ! ما الذي أغضبك في البدء؟ وما الذي أزال عنك الغضب أخيراً؟

تنتظر أحد الناس الذين ضربوا لك موعداً، وتأخر عن موعده، تغضب بشدة، وتبدأ تنظر في الساعة، ثم يحضر، وإذا به قد تعطل بحادث مروري تتضح علاماته على سيارته، فيهبط مؤشر الغضب إلى أدنى مستوياته، وتنفرج أساريرك، وتهدأ صولة الحنق لديك! ما الذي ألهب غضبك ابتداءً؟ وما الذي أطفأه انتهاءً؟

في مجموعة من الزملاء تقص عليهم حكاية غير مهمة، وفي منتصف الحديث قاطعك أحدهم، وبدأ يسأل خارج نطاق الحكاية، ثم بعد أن استأنفت الكلام، كرر المسلك نفسه سواءً بالتشاغل عن حديثك أو بالحديث مع الآخرين وإشغالهم عن الإنصات، الغالبية العظمى من الناس تغضب كثيراً إذا مر بها هذا الموقف، بل هناك أحداث موثقة في أدبيات تطوير الشخصية تتحدث عن حادثة قتل ارتكبت في حق زوجة انصرفت، وزوجها يتحدث إليها في موضوع ما.

هل من قاسم مشترك يجمع الأمثلة الثلاثة آنفة الذكر؟

بزعمنا، أن نعم.

obeikandl.com

فالسائق غير المبالي والصديق الذي تأخر عن موعده، والزميل الذي يتشاغل عن الإنصات إليك كلهم يوجهون رسالة ذات معنى واحد، مفادها: أنك غير مهم أو أنه لايحب أن يكترث بك، وهذا ما يفسره أو يفهمه عقلك الباطن، وليس بالضرورة هو مقصد الأشخاص في الأمثلة الثلاثة.

الغالبية العظمى من الناس تحول هذه الرسـالة إلى رسالة شخصية (من الإنسان لنفسه) مسببة هبوطاً في تقديره لذاته، وقد يكون أحد الأدلة القوية على هذا الاستنتاج هو أنك في المثال الأول قد ارتحت كثيراً عندما نظرت إلى السائق وصفته، وكذلك زال غضبك عندما علمت عن سبب تأخر الزميل أو الصديق.

أما الإنصات فأهميته الكبرى ليسـت في استيعاب ما يقوله المرسل فقط، وإنما في الرسـالة المرتدة التي يتلقاها المتحدث، وهي أنه شـخص مهم، ومن ثم يرتفع تقديره لذاتـه، مهارة الإنصات واحدة من أهم مهـارات القادة إن لم تكن الأهم، كما تؤكدها أدبيات القيادة.

يعول علماء النفس الإكلينيكي كثيراً على تقدير الذات؛ لأهميته في حياة الإنسان، بـل إن كثيراً من الكتـب تتحدث عن تقدير الذات بوصفه بنية تحتية للصحة النفسـية والسعادة وعاملاً مهمًّا لتحقيق أهداف الإنسان في الحياة.

باختصـار تقديـر الذات هـو القيمة التـي تعطيها لنفسـك، وهذا يشـبه إلى حد كبـير مؤشر الأسـهم في الأسـواق المالية، فكـما أن بعض الشركات تكـون ذات طابع مسـتقر، ومن ثم فهـي ثابتة وقوية، ولا تهتـز كثيراً باضطرابات الأسـواق، فإن هناك شركات أخرى شـديدة الاضطراب والتأثر بالأخبار والتحولات في الأسـواق، غير أن الظاهرة الواضحة أنه ليس هناك شركة بمنأى عن التأثر قليلاً أو كثيراً.

تقدير الذات يشبه إلى حد كبير هذا المفهوم، فالآمنون الواثقون لايتأثر تقديرهم لذاتهـم كثـيراً بإنجازاتهم أو بكلام النـاس عنهم، في حين يضطـرب بعضهم، وتفقد

ذاته قيمتها لمجرد سـماعه نقداً جارحاً أو عجزه عن الوصول إلى هدف، ويرتفع فجأة تقديره لذاته عندما يسمع مديحاً أو يحقق هدفاً عابراً.

ما طبيعة تقدير الذات؟

وهل يمكن قياسه؟

وهل يولد الإنسـان واثقاً من نفسـه، مقدراً لذاته محبًّا لها، ثم تتناقص هذه المحبة وهذا التقدير مع الاحتكاك بالحياة، أم أن العكس هو الصحيح؟ حيث يولد الإنسان غير آمن وغير واثق، ويبدأ ببناء الثقة، ويقدر ذاته مع مرور الأيام والاحتكاك بمحيطه؟

بحسـب كثـير من الكتـب والمراجع العلمية، فـإن الإجابة عن التسـاؤلات فيما سبق غير محددة بشكل قطعي مثل أي ظاهرة تخص النفس البشرية.

فيـما يـأتي قائمـة (check list) طورها الدكتـور بريان رويـت، ونشرها في كتابه الثقة لتكون أنت (the confidence to be you):

الواثقون:

١- يؤمنون بأنفسهم، وبما يعملون، ويسيطرون على حياتهم.
٢- يتقبلون المسؤولية عن تصرفاتهم.
٣- متزنون في سلوكهم ومواقفهم وتوقعاتهم للمستقبل.
٤- لديهم المرونة تجاه الناس والمواقف التي يتعرضون لها.
٥- حوارهم الداخلي (حوار النفس) إيجابي وحانٍ ومدعم.
٦- لا تسيّر حياتهم الواجبات.
٧- يتعلمـون من أخطائهم، ويـرون أن التجارب مسـاعدة لهم على التميز والتطوير.
٨- يقيّمون أنفسهم بواقعية.

obeikandl.com

٩- يؤكدون على احتياجاتهم دون عدوانية.
١٠- يتحدثون بهدوء وبوتيرة مقبولة.
١١- واقعيون وصادقون في آرائهم ومناقشاتهم.
١٢- لا يخجلون من إظهار معتقداتهم وآرائهم.
١٣- لغة الجسد عندهم تعكس الثقة التي يشعرون بها.
١٤- ليسـوا في حاجة إلى النقد المسـتمر وإصـدار الأحكام حتـى يقللوا من قيمة الأنا عندهم (إرضاء غرورهم).
١٥- ينصتون بإخلاص، ولا يهتمون كثيراً بما يعتقده الناس عنهم.
١٦- يقبلون أنفسهم كما هي دون النظر للإنجازات والإخفاقات.
١٧- عندما تسنح لهم فرصة جوابهم (لم لا) وليس لماذا.
١٨- يرون الحياة سلسلة من التحديات.
١٩- إذا سألوا أي حيوان يمثلون؟ فقد يكون جوابهم الحصان أو الغوريلا.
٢٠- يقبلون النقد بوصفه شيئاً طبيعيًّا في الحياة.
٢١- يواجهون بأعينهم من يتحدثون معه أو يحدثهم.
٢٢- يسمون التعامل مع الناس (تفاوض).
٢٣- يؤمنون بقدرتهم على التأثير في الأوضاع الراهنة.

غير الآمنين:

١- تعكس لغة الجسد عندهم نقص الثقة.
٢- حديثهم، إما بلين مبالغ فيه وتمتمة أو مرتفع جدًّا.
٣- يتحدثون بسرعة وبنبرة حادة.
٤- يحتاجون إلى إلغاء آراء الآخرين أو الهيمنة عليهم حتى يقنعوا أنفسهم، وربما الآخرين بأنهم مقبولون.

obeikandi.com

٥- لا يصغون بشكل جيد، ويقاطعون المتحدث كثيراً؛ لكسب الاهتمام.

٦- يحتاجون إلى المحبة والقبول، ويخافون من الرفض.

٧- يتكِئُون كثيراً على مساندة الآخرين وقبولهم.

٨- الشعور بالذنب والخوف من الفشل يؤدي دوراً كبيراً في حياتهم.

٩- يستعملون (تفادي الأشياء ـ التهرب) أسلوباً أساسيًّا لتجنب الأخطاء التي ينظرون إليها على أنها فشل.

١٠- يهتمون جدًّا بنظرة الآخرين لهم.

١١- قلقون جدًّا ويهتمون بالنتائج والنقد المترتب عليها.

١٢- حوارهم الداخلي (حديث النفس) مليء بالشكوك والانتقادات والخوف والكلمات السلبية.

١٣- يرون الحياة سلسلة من المشكلات.

١٤- فلسفتهم (لا تدخل في السباق؛ فربما تخسر).

١٥- إذا سئلوا عن الحيوان الذي يمثلونه؟ قالوا: الأرنب أو الفأرة.

١٦- لديهم إيمان قليل جدًّا بأنفسهم بوصفهم أشخاصاً، ولا يثمنون قدراتهم، ويقللون منها.

١٧- يقارنون أنفسهم بالآخرين بشكل يجعلهم مفضولين.

١٨- يستخدمون الأسئلة بوصفها جزءاً من محادثاتهم (الأسئلة التي تتضمن تردداً).

١٩- يتوقعون الانتقاد، ويستخدمون كلمة آسف كثيراً.

٢٠- لديهم شكوك حول أنفسهم وقدراتهم ورأي الآخرين عنهم.

٢١- لايسمعون بما يقال لهم إلا اللوم والنقد؛ لأن هذا يتوافق مع حديث أنفسهم.

٢٢- ربما يستخدمون الاعتداء وسيلة للدفاع عن النفس.

obeikandl.com

٢٣- يشـعرون بالخجـل، وينسـحبون مـن الاجتماعـات، ويخافـون مقابلـة الناس الجدد.
٢٤- يخافون من الذهاب للمناسـبات، ويخشـون أن تسـلط عليهم الأضواء أو يقدموا أحاديث عامة.
٢٥- ينظرون إلى المسـتمعين بوصفهم عدواً ينتظـر فرصة مواتية لتحطيمهم بالنقد.
٢٦- يشعرون بالأمان مع الاستقرار، والتغيير بالنسبة إليهم مشكلة.
٢٧- تتحـرك عيونهم عند المحادثة، وينظرون إلى أي شيء سـوى الشـخص الذي يتحدث معهم.
٢٨- ينظـرون إلى التعامـل مـع الآخرين بوصفـه مواجهـة، ويتوقعون أنهم الطرف الخاسر.
٢٩- سـلبيون يؤمنـون بأنهـم فاقـدو القـدرة والتحكـم، وأنهـم ضحايـا لأي معاملة.
٣٠- يواجهون صعوبة كبيرة، عندما يكونون غير محصنين.

يصعب أن نجد شخصاً فيه جميع صفات الواثقين، وليس به أي صِفةٍ من صِفات غـير الواثقين (أو غير الآمنين) أو العكس، فقد اقتضت حكمة المولى -عز وجل- أن يكون في كل واحد منا مجموعة من هذه ومجموعة من تلك، إلا أن بعض الأشـخاص يغلب عليهم صفات فقدان الثقة وبعضهم الآخر يغلب عليه صفات الثقة.

والسـؤال المهـم الآن إذا صـدق الإنسـان مع نفسـه، وعرف أنه يعـاني نقصاً في تقديره لذاته، فكيف يسـتطيع بناءها بشـكل جيد، وهل هذا ممكن؟ فالشـعور بالثقة والأمان ثروة مهمة للسير في هذه الحياة.

هناك نظرية مقبولة عند علماء النفس، هي أن «الطريقة التي تفكر بها هي الطريقة التي تشعر بها» والمفرح والمطمئن أننا نستطيع أن نغير من الطريقة التي نفكر بها، ومن ثم نستطيع أن نحسّن شعورنا.

obeikandl.com

لا أعتقد أن هناك شيئاً يمنح الإنسان الثقة والأمان مثل الإيمان العميق الصادق بالرب -عز وجل- بقدرته وحكمته ورحمته بخلقه و قيوميته وخزائنه التي لا تنفد.
يضرب الشيخ محمد متولي الشعراوي -رحمه الله- مثالاً بسيطاً، حيث يقول:

«تصور أن شـابًّا هو ابن لثري كبير كيف سـينظر إلى مسـتقبله؟ لا شـك أن لديـه شـعوراً بالأمـان والثقة، ألا يستحي من له رب غني كريم أن يقلق أو يخشى؟».

عندما نشعر بشيء سيئ، فهناك تفكير سيئ خلف هذا الشعور، وهذا التفكير غالباً ما يكون ناتجاً عن اضطرابات في الإدراك (بحسب النظرية الإدراكية).
وقد أعد المعالجون النفسيون قائمة بهذه الاضطرابات، وهي:

١-**التفكير الحدي**: إما كل شيء أو لا شيء (أسود أو أبيض).

٢-**التعميم المبالغ فيه**: خسارة صفقة مثلاً تعني أنك خاسر دائماً.

٣-**الفلترة (الترشيح)**: النظر فقط للأشياء السلبية.

٤-**قـراءة الأفكار**: القراءة السـلبية لردود أفعال الآخريـن على الرغم من عدم وجود دليل.

٥-**اللوم**: إلقاء اللوم المستمر على النفس.

٦-**الشـخصنة**: ربط كل شيء بشـخصك أو بالأشـخاص الآخرين، ومن ذلك اعتقاد أنك المقصود في أي تعليق أو حدث.

٧-**التفكـير العاطفـي**: دون أسـباب عقلانية يتأرجح الإنسـان بين تفاؤل مفرط وتشاؤم مفرط.

openkanar.com

٨- **التوسيم**: بدل أن تقول: خسرت هذه المرة، تقول لنفسك: أنا خاسر.

هنـاك كثير من الآليات لمسـاعدة الإنسـان للتغلب على هـذه الاضطرابات، أو الانحرافـات في الإدراك التي تؤدي إلى الشـعور السـيئ، وتهاجـم تقدير الذات وثقة الإنسان بنفسه.

يحمل علماء النفس السنوات الأولى من عمر الإنسان مسؤولية كبيرة عن رصيده من تقدير الذات والثقة بالنفس، وتسـير المعادلة كالآتي: عندما يولد الإنسـان، ويبدأ بـإدراك مـا حوله، فـإن كان أبواه يغمرانـه بالحب غير المشروط (لا يرتبط بالسـلوك) ويصـوران له العالم من حوله بوصفه مكانـاً آمناً، ولا يمطرانه بالنقد عند أي إخفاق، فالغالب أن ينشأ واثقاً من نفسه محباً لها مقدراً لذاته، والعكس صحيح.

غـير أن هنـاك دلائـل عدّة أهمهـا البحـوث التي أجريـت على توائـم متطابقين انفصلوا منذ الولادة، وتربوا في عائلات مختلفة، هذه الدلائل تشـير إلى الإرث الجيني وأثـره في تقديـر الذات، بمعنـى أن جزءاً من تقديرك لذاتك قد ورثته جينيًّا لا سـبيل إلى تغييره.

وإن هناك جدلاً حول أيهما أسبق، الإنجازات أم تقدير الذات؟ بمعنى هل يزيد تقديرك لذاتك عندما تحقق إنجازاً أم أنك تحقق إنجازات لأن تقديرك لذاتك مرتفع، والجواب الأقرب للحقيقة هو أن المسألة تسير في الاتجاهين، فكل اتجاه يغذي الآخر.

كثـير من الناس يربـط تصاعديًّا بين الثـراء وتحقيق الذات، ويسـود اعتقاد بأن شديدي الثراء يتمتعون بالضرورة بمستوى أعلى من تقدير الذات وتحقيق الذات عن باقي الناس. غير أن بحوثاً أجريت لدراسة أثر الثراء الكثير في تقدير الذات، فلم تجد له أثراً يوازي أثر التعليم.

أهـم مظاهر تقدير الـذات، انخفاضاً وارتفاعاً، وأهمهـا في أثرها البعيد في حياة الإنسان أربعة:

١. الموقف من النقد:

فالواثق لديه إستراتيجية مختلفة عن غير الواثق في التفاعل مع النقد ترتكز هذه الإستراتيجية على اختلاف الإدراك بين الطرفين أو بين الشخصيتين، فالواثق يحثه إدراكه إلى أن المستهدف من النقد هو عمله أو تصرفه أو سلوكه، وليس ذاتـه، وحجم تقديره لنقد الآخرين يقع في مستوى لا يؤثر في تقديره لذاته، أمـا غير الواثق فيواجه النقد برد فعل متشـنج وبصوت مرتفـع غالباً، حيث يتجـه إلى أن هـذا النقد موجه لذاته، ومن ثم يسـتنفر كل طاقاته؛ للدفاع عن نفسـه ونتيجة للألم الذي يسببه النقد للشخص ذي التقدير المنخفض للذات فإنه يطور إستراتيجيات لمواجهته، من أهمها التحاشي كتشبه الذات منخفضة القيمة الإصبع الجريح التي نجنبها الأشياء الحارة أو السوائل الحامضة.

٢. النزعة الكمالية:

وهـي السـعي الحثيـث للكـمال في كل عمل وإغـلاق جميع منافـذ الأخطاء، ومعلوم أن مثل هذا السـعي عسير المنال، ومن ثم يحرم غير الواثقين أنفسهم والمجتمـع من أعمال كثـيرة لم يتمكنوا من إخراجها نتيجة سـعيهم دون كلل لتحقيق الكمال، ومن المتعارف عليه أنه كلما اقترب الإنسـان من الكمال التام لإنجـاز مهمـة أو عمل مـا، احتاج إلى مـوارد هائلة من الوقـت والمعلومات والمصادر التي قد تقف عائقاً في النهاية أمام إخراج العمل إلى حيز النور.

٣. قائمة الواجبات:

يمطر غير الواثقين أنفسهم بقائمة لا ضرورة لها من الواجبات تجاه أشخاص وقضايـا قـد لا يكونـون معنيين بهـا، وتهدر طاقتهـم، ويفقدون متعـه الحياة وثمارها اليانعة نتيجة هذه المعتقدات النفسية المشوهة.

obeikandi.com

٤. طلب احتياجات الإنسان المشروعة:

يؤكد الواثقون على طلباتهم واحتياجاتهم بشكل هادئ وواضح دون أن يكون لذلك قصور على من يشـاركهم العمل أو المهمة، في حين يكتم غير الواثقين احتياجاتهـم حتى يصلوا إلى درجـة الانفعال، ويهاجمـوا شريكهم في القرار.

والأمثلـة على ذلـك كثيرة، بعضها بسـيط جدًّا مثل درجة حـرارة المكيف في غرفة يشـترك فيها أكثر من إنسـان وصولاً إلى القـرارات الكبيرة التي تخص علاقات عمل أو تجارة.

إن مسـؤولية بناء تقدير الذات تقع بالدرجة الأولى على عاتق الآباء والأمهات وأي إنسان له سلطة على الطرف المعني، فنشوء الطفل في بيت يغمره الحب والعطف وإحاطتـه بحـب غـير مـشروط لا يرتبط هذا الحـب بالسـلوك ونتائج الأداء سـتقود في الغالـب إلى بنـاء تقديـر ذات مرتفـع، أمـا المهاجمة المسـتمرة للطفل من أبيـه أو أمه أو مدرسـته وتوجيـه اللـوم والتجريح أو وصفه بصفات بشـعة، فغالبـاً ما يؤدي إلى استنزاف كبير لتقدير الإنسان لذاته.

وضع العالم النفسي «أوجين ساجان» مصطلح «الناقد المرضي[١]» لوصف ذلك الصوت الداخلي السـلبي الذي يهاجم تقدير الإنسـان لذاته، ويتحالف هذا الصوت مـع الناقـد الخارجي لمهاجمة الإنسـان وتفسـير كل كلمـة أو حركة أو تصرف بأسـوأ احتـمال ممكـن، وقد أوضح هذا العالم وغيره، حقيقة الحـوار الداخلي الذي يديره هذا الناقد عند الأشخاص الذين يعانون تقديراً منخفضاً للذات.

ويعد «الدكتور ماثيو ماكي» القدرة على التعرف إلى هذا الناقد الداخلي وكشف ستره من أهم مرتكزات الشفاء من الحساسية للنقد.

(١) انظر: تقدير الذات، الطبعة الثالثة.

obeikandl.com

وقـد وصف الدكتـور ماكي قدرات هـذا الناقد وتغلله داخـل منظومة التفكير وأسـلحته التي يسـتعملها، وعندما يتدبر الإنسـان الأوصاف التي يطلقها المعالجون النفسـيون وعلماء النفس على الناقد المرضي، سـواء أسـموه بهذا الاسم أو باسم آخر، مثل الحوار الداخلي، فإنه في الواقع يتطابق إلى حد كبير مع وسوسة الشيطان المفهومة في تربيتنا الإسلامية، وهذا يعني أن المؤمن السليم لديه سلاح قوي جدًّا لمواجهة هذا الناقد بوصفه جزءاً من وسوسة إبليس يستطيع أن يتحرز منها عن طريقين:

١- مواجهة هذا الناقد أو الموسـوس بما أتاحته الأبحاث النفسـية الحديثة من وسائل مساعدة لشفاء النفس الإنسانية من مثل هذا الحوار المضر.

٢- التعلق بمسـبب الأسـباب سـبحانه وتعالى واللجوء إليه والاسـتعاذة به وفق الأوراد والآيات الكريمة الواردة في هذا الباب.

الخلاصة:

شـغل موضـوع تقديـر الذات حيـزاً كبـيراً في مباحث علـم النفـس، وبخاصة عنـد المعالجـين النفسـيين، وطوروا كثـيراً من الآليـات والبرامج وحلقـات التدريب التي تسـاعد على بنـاء تقدير ذات مرتفع، أما نحن بوصفنا مؤمنين ومسـلمين فنجزم بـأن البنـاء الأهم لتقدير الذات والثقة بالنفس يرتكز بشـكل أسـاس على درجة إيمان الإنسـان بربه -عز وجل- وأنه إن اسـتطاع أن يبني إيماناً راسـخاً، ويصونه باستمرار فسـيتمتع بثمرات الثقة والأمن النفسي وعكس ذلـك صحيح، ولا يتنافى ذلك مع ما يبذله الإنسـان من أسباب تربوية تسـاعد على تحقيق تقدير ذات مرتفع بطاقة وحيوية لمواجهة تكاليف الحياة.

obeikandl.com

٣ المنطق

obeikandl.com

obeikandl.com

المنطق

إذا سمعت من يقول: إن المستشفى الفلاني « مجزرة» مستدلاً بعدم نجاح عملية جراحية أجريت لأحد أقاربه، أو حدوث وفاة غير متوقعة لأحد المنومين بالمستشفى فهناك احتمال كبير أن يكون هذا الشخص ضحية برمجة ذهنية تتبع المنطق القديم.

وعندما يُسَرّ شخص بشكل وثوقي لتعيين رجل بلغ «السبعين» في وظيفة كبيرة؛ لأنه نجح وهو في الأربعين في مسؤولية أخرى، فقد يكون هذا السرور من مخرجات المنطق القديم.

وإذا لم تستطع فهم كون أحد «الأتقياء» ممن اشتهروا بالورع والتمسك بالشريعة يمارس مداينات ربوية فربما يقدم لك المنطق القديم بعض التعليل.

اتهامات خطيرة للمنطق القديم! أليس كذلك؟

ما المنطق القديم؟ وهل هناك منطق حديث؟ بل ما المنطق أصلاً؟

كل ما سنحاول فعله في الصفحات القليلة المقبلة هو إثارة مجموعة من القضايا حول مسؤولية المنطق القديم عن انحرافات التفكير وأخطاء الأحكام، ومن ثم السلوكيات.

أرجو أن يتحمل القارئ الكريم رحلتنا القصيرة مع المنطق، فلعل المعرفة المكتسبة من هذه الرحلة تستحق الصبر.

كلمة منطق في العربية ترجمة لكلمة يونانية تعني عقل، ويقدم الدكتور عبدالرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية تعريفات عدّة للمنطق أوضحها من وجهة نظري هو

obeikandl.com

تعريف «إيمانويل كنت»:

«نطلـق نحن كلمـة منطـق logic على علم القوانين الضرورية للذهن والعقل بوجه عام».

وتعـرف الموسـوعة العربية العالمية، المنطـق بأنه: «فرع من فروع الفلسـفة يعنى بقواعد التفكير السليم».

ويعـرف الدكتـور زكي نجيب محمود المنطق بأنه: «اسـتخراج للصور الشـكلية التي نظن أن تفكيرنا العلمي يسير على نهجها».

وقبل سـبعة قـرون عرف ابن خلدون المنطق في مقدمتـه بأنه: «قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفية للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات».

هنـاك اتفـاق بين مؤرخي العلـوم على أن المنطـق القديم قد بدأ مع الفيلسـوف اليوناني أرسطو، ويعتقد هؤلاء المؤرخون أن التفكير البشري قبل الحضارة الإغريقية كان يسير بطريقة فوضوية ومعظمه يستند إلى الخرافة والأساطير.

ويـرى بعض علـماء الإدراك في العصر الحاضر أن المنطـق ذو قيمة محورية لفهم عمل العقل وطرق الإدراك[١].

وقـد عرف أرسـطو في أدبيـات الحضارة الإسـلامية بالمعلم الأول، ربما بسـبب كونه أول من ابتدع علم المنطق.

يقوم المنطق الأرسـطي في أبسـط صوره وأكثرها أثراً عـلى القياس الذي يتكون من مقدمتين ونتيجة:

كل إنسان فانٍ	مقدمة كبرى
سعد إنسان	مقدمة صغرى
إذاً، سعد فانٍ	نتيجة «منطقية»

(١) انظر: **Mind Introduction to cognitive science second edition – parl thagard**

obeikandl.com

ثم تصبح النتيجة مقدمة لقياس آخر في سلسلة من المقدمات أو استنباط النتائج ولذلك يسمى هذا المنطق المنطق الاستنباطي.

ويطلـق عليـه أحيانـاً المنطق الصـوري نسـبة إلى الصـورة؛ لأنه يهتم بالشـكل (الصورة) ولا يسـأل عن المضمون، وهو ينسجم مع الحالة الفكرية التي كانت عليها أثينا من الاهتمام بالعقل المجرد والتأمل والترفع عن إجراء التجارب أو البحث العلمي.

وثق بهذا المنطق كثير من فلاسـفة الإسـلام، واسـتخدمه المتكلمون للدفاع عن معتقداتهم وإثبات بطلان معتقدات خصومهم.

وقـد تعـرض هذا المنطـق لمواجهات كـبرى في حضارتنا الإسـلامية كان بطلها الأول الإمام أبوحامد الغزالي، ثم جاء بعده شـيخ الإسـلام ابـن تيمية ليضع كتاباً في نقض المنطق من جذوره، وبعده ابن خلدون الذي وضع اللبنات في طريق بناء منطق جديـد، وفي العـصر الحديث توجـه عالم الاجتـماع العراقي الدكتور عـلي الوردي إلى كشف عورات هذا المنطق في كتب عدّة أهمها كتابه منطق ابن خلدون، الذي سنقتبس منـه كثيراً لتوضيح مبادئ المنطق الأرسـطي، ومنها يتضح مسـؤوليته عن انحرافات وتشوهات تفكيرنا حتى الوقت الراهن.

يرى الدكتور علي الوردي أن المنطق الأرسطي يقوم على ثلاثة مبادئ، هي:

١. مبدأ العقلانية.
٢. مبدأ السببية.
٣. مبدأ الماهية.

وباختصـار، **فمبـدأ العقلانيـة** يعني الاعتـماد المطلق عـلى الكليـات العقلية في الوصـول إلى الحقيقـة وعدم الثقـة بالمحسوسـات واعتبارها مضللـة، ومعروف عن فلاسفة اليونان تقديس العقل والشك في الحواس وازدراء العمل التجريبي.

obeikandl.com

أمـا السـببية فتقـول: إن جميع حوادث الكـون تخضع لقانون صـارم هو تعاقب السـبب والنتيجة أو العلة والمعلول، فالحوادث (بحسب عبارة الدكتور علي الوردي) وفق هذا المنطق لا تقع اعتباطاً أو من جراء إرادة واعية[١].

وعلى الرغم من أن هذا المبدأ يمثل بدهية يقر بها الجميع اليوم، ولكنه قاد بشكله المتطرف إلى عدم التصديق بأي شيء ليس له سـبب معروف، وأدى التمسـك المرضي بـه إلى إنكار بعـض الخوارق والمعجـزات التي أصبحت تدرس الآن بشـكل علمي، ولعلكـم تذكرون أن الإمـام أبا حامد الغزالي، قد أنكر السـببية، ونقضها من أصلها، وتبعه في ذلك الفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم.

المبدأ الثالث من مبادئ المنطق الأرسـطي (بحسب تحليل الدكتور علي الوردي) هـو **مبدأ الماهية**، وهو أكثرها شـهرة لدى المتكلمـين، ويتضمن هذا المبدأ ثلاثة قوانين يسميها المناطقة قوانين الفكر، وهي:

أ- قانون الذاتية.

ب- قانون عدم التناقض

ج- قانون الوسط المرفوع.

وينص **قانون الذاتية** على أن الشيء هو هو، فله جوهر لا يتغير بمرور الزمن.

والقانون الثاني ينص على أن الشيء لا يجتمع فيه النقيضان، فهو إما حسن وإما قبيح.

أمـا **القانون الثالث** فينص على أنه لا وسـط بين النقيضـين، فالشيء لا يمكن أن يكـون غير حسـن وغـير قبيح في الوقت نفسـه، وكما يلاحـظ القارئ العزيـز أن هذه القوانين هي وجوه مختلفة لشيء واحد هو الماهية.

ظل هذا المنطق بمبادئه مسـيطراً على الفكر الإنسـاني قرابة ألفي عام على الرغم من المحاولات الجادة والرائعة لفلاسـفة الإسـلام العظام ومفكريـه، أمثال أبي حامد الغزالي وابن تيمية.

(١) راجع: فصل السببية في هذا الكتاب.

obeikandl.com

وحتـى نعرف مدى تغلغله في فكر المتكلمين واهتمام الناس به انظر إلى السـؤال الآتي الذي طرحه تلامذة ابن تيمية عليه، وكيف أجاب عنه في الفتاوى:

ما تقول في المنطق؟ وهل من قال: إنه فرض كفاية مصيب أم مخطئ؟

فقـد وصـل الأمـر ببعضهم إلى اعتقـاد وجوب تعلمـه على فريق من المسـلمين بوصفه فرض كفاية.

إذاً، فالمنطق القديم سـكوني (تظل فيه الأشياء سـاكنة غير متحركة) وثبوتي (لا تتغـير في ظله الأشـياء) وصـوري (يهتم بالشـكل دون المضمون) وحـدِّي (إما / أو) والوسط مرفوع.

باختصار يمكن عَدُّه منطق المتأملين في الأشكال الرياضية المجردة، ولا يتناسب مع واقع الحياة العملية المتغيرة المتحركة.

امتـداداً للمواجهـات التـي بدأها مفكرو الحضـارة الإسـلامية وفي بواكير عهد النهضـة الأوروبيـة بدأ الفلاسـفة الجدد، يتبرمون مـن هذا المنطـق، ويحاولون تطوير منطـق جديـد يلائـم تطـور الحيـاة ومتطلبـات العلـوم، ويعتقـد مؤرخو العلـوم أن الإنجليزي «فرانسـيس بيكون» صاحـب المذهب التجريبي الاسـتقرائي و«راموس» البروتستانتي الفرنسي «وليوناردو دافنشي» الفنان الإيطالي هم مؤسسو المنطق الحديث قبـل «ديـكارت» الفرنسي، ثم «هيغل» الألمـاني الذي نقض مبدأ الماهيـة بتطوير نظرية وجود النقيض داخل الشيء والصراع الجدلي بين الشيء ونقيضه في صيرورة مستمرة، ثم جاء الفلاسفة الإنجليز «وايتهيد» و«راسل» ليضعوا قواعد المنطق الحديث.

يرى الدكتور زكي نجيب محمود أن أهم الاختلافات بين المنطق الحديث والمنطق القديم هو أن المنطق القديم يتلمس خصائص الأشـياء في جواهر أنواعها، أما المنطق الحديث فيتلمس خصائص الأشياء في طرائق بنائها والعلاقات التي تربط أطرافها.

نعـود الآن إلى الأمثلـة التي اسـتفتحنا بها هـذا الباب والاتهامات التي سـقناها جزافاً للمنطق القديم، فدعونا نتعرف إلى أسباب هذه الاتهامات.

في البداية نحلل النتيجة التي وصل إليها «مصدر الحكم»:

الـذي أصدر حكماً بالفشـل على المستشـفى؛ لأنـه أخفق في معالجـة مريض أو حصل عنده خطأ طبي أدى إلى الوفاة أغلب الظن أن تفكيره سار على هذا الطريق:

المستشفى الذي يخطئ في علاج مريض مستشفى فاشل === (مقدمة كبرى).

المستشفى "س" أخطأ في علاج المريض "ع" === (مقدمة صغرى).

إذاً، المستشفى "س" فاشل === (نتيجة).

تزخـر مجتمعاتنـا ومقـار أعمالنا بهـذا النوع من المنطـق الذي يـؤدي إلى تعميمات مجحفـة وإلى أحـكام حدّية بعيدة عـن الواقع وغير مفيـدة في تصحيح الأوضاع، وكما رأينا في باب (تقدير الذات) كيف تهاجم مثل هذه الأحكام تقدير الإنسـان لذاته، وتؤثر على صحته النفسية.

وعلى خلاف المنطق القديم، ففي المنطق الحديث يمكن أن يسـير التفكير لمواجهة موضوع المستشفى على هذا النحو:

كم عملية جراحية أجريت في هذا المستشفى؟

كم نسبة نجاح هذه العمليات؟

كم تبلغ النسبة العالمية للنجاح في مستشفيات مماثلة؟

مقارنة بأعوام سابقة، هل ارتفعت نسبة النجاح أم انخفضت؟

ومن ثم يصدر «تقرير» وليس «حكماً» على مثل هذه الهيئة كالآتي:

obeikandl.com

«بينما ارتفعت نسبة نجاح العمليات في هذا المستشفى بمقدار (ن٪) عن العام الماضي، ولكن أداء المستشفى أقل من متوسط أداء المستشفيات المماثلة في العالم».

لاحظ أنه بدلاً من الوسط المرفوع إما فاشل أو ناجح، طورنا نسبة نجاح مئوية وبدلاً من «الماهية»: هو هو، اعترفنا بوجود تغير في أداء المستشفى مع مرور الزمن، وهكذا فقد استبدلنا بالمنطق القديم منطقاً علمياً حديثاً. لا شك في أن هذا المثال تبسيطي جدًّا ولكنه يصور حالة ذهنية سائدة ومدمرة، فالمنطق القديم يشجع على إصدار الأحكام، ومن ثم يسبب أذى لمصدر الحكم والمحكوم عليه، سواء كان إنساناً أو مؤسسة، وقد دلت الأبحاث السيكولوجية على الأثر المدمر في إصدار الأحكام وسلوكه بوصفه طريقة حياة.

مثالنا الثاني حول المسؤول أصبح واضحاً، إذ إن الناس غالباً (عندما تسير وفق المنطق القديم) تنظر إلى الأمور نظرة سكونية جامدة وبحسب قوانين الماهية، ففلان هو فلان، في وزارة «س» أو وزارة «ص» وفلان هو فلان وعمره ثلاثون أو عمره ستون، وفلان هو فلان في ظروف السبعينيات أو التسعينيات، وهكذا.

أما المثال الثالث فدعوني أذكر لكم واقعة شاهدتها بنفسي، يحضر أحد الراغبين في الاقتراض (قرضاً غير حسن بالطبع) إلى أحد الدكاكين في السوق، وهو على موعد مع المقرض وبينهما صاحب الدكان، ويتفقان على صفقة مؤجلة واضحة، ثم يتم تغيير شكل التعامل عن طريق وساطة بضاعة موجودة في مخزن قريب تستعمل باستمرار لهذا الغرض وبعد إتمام الاتفاق (الأساس) يخرج طالب القرض لمعاينة البضاعة، ويخرج له صاحب المخزن جزءاً منها للمعاينة (قد تكون أرزاً أو هيلاً أو قهوة) ويحركها المقترض قليلاً في المخزن.

ثم يعود للدكان، ويبيعها بثمن يقل قليلاً عن ثمن شرائها من المقترض.

صفقة ربوية خالصة بكل مقاصد الربا. ما الذي إذاً جعل أكثر أهل نجد مكانة اجتماعية ودينية يمارسون هذا النوع من التعامل دون تحرج؟

نعلم عن بعض الموسرين المتدينين أنه لو سمع صوت موسيقا لربما بلغ من كدره أن يعاف غداءه، وطار النوم من عينيه، ومع ذلك فهو يعود من هذا الدكان قرير العين بعد أن أتم صفقة المداينة الربوية. كيف نفسر ذلك؟

يعتقد كثير من الناس (وفق المنطق القديم) أنك إذا غيرت في الشكل فقد تغير المضمون، وقد يكون هذا بالضبط سبب رضا الناس بهذا الصنف من المداينة، استحداث وساطة سلعة تستعمل باستمرار ودون أدنى احتمال لاستلامها ونقلها والتصرف بها من قبل المقترض مع معرفة سعر بيعها بعد إتمام الصفقة وعدم وجود أي نوع من المخاطرة من المقرض، كلها تشي بأن العملية لا تختلف عن إقراض مالي مباشر، وإذا أمعنت النظر في المقاصد العليا لتحريم الربا سنجد عملية المداينة في «مضمونها» مطابقة لعملية الربا إن لم يكن بها ظلم إضافي بخصم قيمة البضاعة بعد إعادة بيعها لصاحب الدكان.

الممول لا يدخل في أي نوع من المخاطرة، فماله ولد مالاً دون عمل على الإطلاق، وصاحب الدكان يشبه البنك في وساطته بين ملاك المال والمحتاجين إليه، ومع ذلك فعندما تم تغيير الشكل بإدخال البضاعة الوسيطة استمرأت الأنفس هذا النوع من التعامل، وقرت به الأعين.

أحد أبرز أمثلة الأحكام الحدّية التي تطلقها ذهنية المنطق القديم تلك الآراء التي تصدر أحياناً في سياق نقد الحضارة الغربية، فهي عند بعض الكتاب (ظهر زيفها) كما لو كانت وثيقة أو انكشفت عورتها (كأنها فتاة ليل)، وعند بعضهم الآخر «الحضارة الوحيدة»، وهكذا تختزل عقلية المنطق القديم خمسة قرون من الخير والشر والإنجاز والإخفاق بعبارات حدّية سكونية.

ربـما أكـون قد حملت المنطق القديم أكثر مما يحتمـل، غير أني أتهمه بصناعة ذهنية حدّية شكلية سكونيه تؤثر بشكل سلبي في طرائق التفكير وإصدار الأحكام.

استدراكات:

أولاً/ المنطق القديم ليس شرًّا محضاً، لكنه في الغالب الأعم يؤدي إلى خلل في الوصول إلى الحقيقة، وأوضح مثال على إمكانية اسـتخدام المنطق القديم في مقولات رائعة، نذكر حديث المصطفى ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، عندما قال: «**كل مسكر خمر، وكل خمر حرام**» و «**ما أسكر قليله، فكثيره حرام**»، ففي هذين الحديثين المنطقيين إغـلاق جميـع أبواب التأويـل في شرب قليل الخمر، أو في اعتقـاد أن التحريم للكأس الأخيرة المسكرة، وهكذا.

ثانيـاً/ ليس بالـضرورة أن تكون الذهنية التي تسـير وفق المنطـق القديم واعية بالطريق الذي تسـير فيه، فقد تكون هذه البرمجة تشـكلت وفق بنيتها الثقافية وتربيتها الاجتماعية ومرجعيتها الفكرية، بمعنى أن الغالبية الساحقة ممن ابتلوا باستعمال المنطق القديم للوصول للحقيقة لم يدرسوا المنطق على الإطلاق.

تذكروا مثلاً ذلك السـؤال الذي نظنه مداعبة للطفل الذي لم يبلغ سن المدرسة، وهو في غاية الخطورة، حينما نسـأل أحد الأطفال: أيهما أحب إليك أمك أم أبوك؟ لا يعبـأ كثير منا بأثر مثل هذا السـؤال، وهو في الحقيقة يحفر أول سـطر في برنامج ذهني لهذا الطفل لتشكيل تفكير وفق المنطق القديم «إما / أو»، بنزعته الحدّية المتطرفة.

ثالثـاً/ منـذ منتصـف القرن الميلادي المـاضي، وبعد أن طورت آليـات وبدائل المنطـق الحديـث الـذي يقـوم عـلى العلاقـات بالدرجـة الأولى، ويؤمـن بالحركـة والصيرورة، شرعت مدارس التعليم العام تدرس هذا المنطق تحت اسم (الرياضيات الحديثـة) ودخلـت إلى المـدارس السـعودية في نهاية التسـعينيات الهجريـة، ونأمل أن تسهم في تشكيل ذهنية حديثة.

obeikandi.com

رابعاً/ ليس من السـهل تحديد الظـروف التي جعلت المنطق القديم يهيمن على طريقـة التفكـير في مجتمعاتنا العربية والإسـلامية، فهذا الأمر يحتـاج إلى بحوث كثيرة ودراسات معمقة، ويمكن للقارئ المهتم أن يطلع على مشروع مالك بن نبي أو محمد عابـد الجابري. ولعله مـن المفيد أيضاً الدعوة إلى عقد ندوات متخصصة لتتبع خيوط المنطـق القديـم في خريطـة العقل العربي المعـاصر في محاولة جادة لتأسـيس بنية صلبة لمنطق أكثر ذكاءًا وفاعلية في التعاطي مع الواقع المعقد.

obeikandl.com

٤ الترف

obeikandl.com

obeikandl.com

الـترف

هناك حملة واضحة في السياق القرآني على الترف، تدبر هذه الآيات:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ ﴾.

﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴾.

وقد وردت كلمة الترف في السياق القرآني ثماني مرات، كلها في سبيل الذم.

ما سر هذا الموقف من الترف والمترفين؟

الـترف في اللغـة النعـم ورغـد العيـش، والمـترف هو الشـخص الـذي يبحث باستمرار عن سهولة العيش وملذات الدنيا.

ما الذي جعل المترفين يواجهون هذا الذم القرآني المستمر؟

هناك في اعتقادي ثلاثة أسباب تجعل المترفين مصدر ضرر كبير للمجتمع:

أولها: مقاومتهم للتغيير.

نتيجـة لاتسـاع دائـرة الراحة لدى المترفـين، فإنهـم يقاومون التغيـير أو الحراك الاجتماعـي ومن ثم يحرمون المجتمعات من الإصلاح الذي لا يأتي غالباً إلا بالتغيير، وأحياناً بتغيير جذري (راديكالي).

الثاني: عدم القدرة على إدراك الحقائق.

يبدو أن الترف الشـديد يشـوه قدرات الإنسـان عـلى إدراك الحقائق، حتى لو لم تدفعه مصالح شـخصية. إن فتاوى بعض المترفين من طلبة العلم (المخلصين بحسب ما يبدو) وآراء بعض المستشارين المترفين تظهر تشوهاً واضحاً في إدراكهم.

obeikandl.com

وتاريـخ البشريـة مليء بحالات كثـيرة يعجز المترفون خلالها عـن الاقتراب من الحقيقة.

تذكرون الملكة ماري أنطوانيت زوجة لويس السادس عشر ملك فرنسا، عندما سـألت عن سـبب تجمهر الناس وغضبهم؟ فقيل لها: إنهم لا يجدون خبزاً، فقالت: لِمَ لا يأكلون بسـكويتاً؟ أعتقد أن هذه المرأة لم تكن تستهتر بمشاعرهم، أو تسخر منهم، بل كانت تعتقد أن البسكويت متوافر لكل الناس.

الثالث: استنزاف الموارد.

ثالـث هذه الأسـباب اقتصادي بامتياز، وذلك أن احتياجات الترف (من سـلع وخدمـات) مرتفعة التكلفة جـدًّا، إن معطفاً ثميناً من فراء أحد الحيوانات يسـتنزف مـن الطاقات البشرية والمـوارد الطبيعية ما يكفي لصناعة عـشرات المعاطف العادية، وثمنـه في السـوق يعكس هذه الحقيقـة، وإن ثمن علبة من الكافيـار لا تتجاوز حجم علبة الزبادي يكفي لإطعام مئة عائلة وجبة جيدة.

عندمـا يسـافر أحـد في رحلة دوليـة بالدرجة الأولى يشـاهد طوفانـاً من الترف البـشري، وأعتقـد أن تكلفة مسـافر واحد بالدرجة الأولى الآن تنقل خمسـة ركاب في الرحلات المخفضة.

obeikandl.com

٥ الضحية

obeikandl.com

obeikandl.com

الضحية

في اعتقادي أن ذهنية «الضحية» مسؤولة عن نسبة كبيرة من إخفاقات الأفراد والمجتمعات، بل حتى الأمم في الوصول إلى أهدافها، عقلية الضحية هي برمجة ذهنية توجه عقل صاحبها إلى البحث عن معوقات لعدم إنجاز عمل ما أو مبررات، عندما يحصل إخفاق.

عندما يتطلب الموقف قيام أحد الأشخاص بعمل مهم ينقسم الناس إلى قسمين رئيسين (مع خليط من كلا القسمين):

الأول: يوجه قدراته وملكاته لإنجاز العمل المطلوب وتدبير الإمكانيات اللازمة لذلك، وليس في ذهنه شيء آخر غير تنفيذ العمل. ومن ثم، فإن لدينا شخصاً يبحث عن النجاح.

الثاني: يوجه قدراته وملكاته لإيجاد مبررات تعترض التنفيذ، وتخلي مسؤوليته أمام نفسه بالدرجة الأولى، ثم أمام الناس. وهناك تكون إزاء شخص يفتش عن الفشل.

وعند حصول مشكلة أو مصيبة ينقسم الناس أيضاً إلى القسمين أنفسهما:

الأول: يتصرف، وكأنه مسيطر على الموقف ومسؤول عن إدارة مصلحته وشؤون حياته، ولا يهمه إخفاقات الآخرين أو تقصيرهم في القيام بواجباتهم أو خطئهم في حقه أو قسوة الظروف، ويبدع حلولاً ومواقف تحقق الحد الأعلى الممكن لمصالحه بحسب ما يتوافر له من موارد. أي إنه يحمل نفسه قدراً كبيراً من المسؤولية.

obeikandl.com

الثاني: يتجـه إلى لـوم الآخريـن أو الظـروف، ويشـعر بأنه ضحيـة لأخطاء لم يتسـبب فيهـا أو لعوامل لا قدرة له عـلى تغييرها، وتبـدأ ذهنيته بإنتاج مبررات تحقق له راحة نفسية دون القيام بأي عمل.

عندما تتاح للإنسان فرصة الاحتكاك بعدد كبير من الناس على مدى زمن طويل وفي مواقـع متعددة سـيبدأ بالتعـرف إلى هذين النمطين بكل سـهولة ومن خلال لقاء قصير تسـتطيع أن تصنف الشـخص الذي أمامك، فإما أنه يعمل وفق عقلية السيطرة أو أنه أسير لعقلية الضحية.

أمضيـت أكثـر من ثلاثين عاماً في قطاع البلديـات وفي خمس مواقع مختلفة، وفي أكثر من منطقة جغرافية، وفرض علي هذا العمل خُلطة كبيرة مع عدد هائل من الناس على مختلف مسـتوياتهم وتأهيلهـم العلمي وبيئاتهم التي نشـؤوا فيها، وأكاد أجزم أن عقلية الضحية أحد أهم الأمراض المهيمنة على ذهنية الفرد والعقل الجمعي في بيئتنا.

عندما يتعذر قبول طالب في إحدى الجامعات، تتشكل ذهنية والده على النحو الآتي:

القبول يحتاج إلى واسطة، ونحن لا نعرف أحداً في هذه الجامعة.

اختبارات القبول ليس لها علاقة بقدرات الطلاب.

يوم اختبار القبول كان ابني مرهقاً نتيجة السفر والسهر.

وهكذا تتفتق ذهنية الضحية عن عدد غير محدود من الأسباب دون أن تجرؤ على ملامسة سبب واحد، وهو أن قدرات الابن لاتؤهله حقًّا لدخول الجامعة.

أما عقلية السيطرة فتواجه الحدث على النحو الآتي:

شيء جيـد أن يكون هناك اختبـار للقبول؛ حتى لايضيع الطالب وقتاً في جامعة لاتؤهله قدراته للتخرج فيها.

obeikandl.com

هناك تخصصات في جامعات أخرى تناسـب ابني، ومن المهم دراسـة الأمر معه للتوجه إلى أحد هذه الأقسام فوراً.

قدرات ابني لاتؤهله لدخول هذه الجامعة.

إن مهارة التمييز بين الشخصية من النوع الأول والنوع الثاني حاسمة لأي قائد، وفي مجتمعاتنـا العربيـة ونتيجـة لظروف يصعب شرحها في هذا السـياق تـكاد عقلية الضحية تستأثر بغالبية الناس.

من خلال ملاحظات شخصية لعدد كبير من القيادات الناجحة في القطاع العام والخاص أكاد أجزم أن أحد أهم القواسم المشتركة بينهم هو **إحساسهم التلقائي (من اللاواعي) بمسؤوليتهم عما حدث لهم، وقدرتهم على إحداث تغيير.**

وهنـا يأتي دور القائد الكفء لاكتشـاف عقليات السـيطرة النادرة ليرمي بها في المواجهات التنفيذية التي لا تستفيد من العقليات التحليلية التبريرية.

كيف تنشأ عقلية الضحية؟

يعتقد كثير من علماء النفس أن المسـألة تبدأ من وقت الطفولة المبكرة، حيث يبدأ المولود بالبكاء ليستجاب لطلباته، ويكبر قليلاً، فيجرب هذه المسألة، فإن وجد والديه سريعي الاستجابة، ويحققان رغباته نشأ على تقمص دور الضحية؛ لينال ما يريد.

كيف تعرف إذا ما كنت تفكر بعقلية الضحية أم لا؟

إذا كنـت ممن ينظر إلى العالم بعين التهكم، ويواجه المشـكلات والقضايا بطريقة عدائيـة، ويختـار النظر إلى الجانب السـلبي من أي موقف، وينقـد الآخرين، ويبخس جهودهم، ويشـكو باسـتمرار دون إعطاء حلول، ويلقي باللوم على الآخرين، عندما تظهر مشـكلات، فهناك احتمال كبـير أن تكون ضحية لعقليـة الضحية والحل يكمن في أن تعـرف هذه المشـكلة، وتـشرع تعالجها، هنـاك كثير من الكتـب والبرامج التي تساعدك على ذلك.

obeikandl.com

المقابـل لعقليـة الضحية هو عقلية السـيطرة، وهذه بعض القواعـد المهمة التي وضعها الدكتور (جاري غابل) في كتابه (السيطرة الشخصية):

قاعدة السيطرة (١):

إذا كنـت تقبـل فكرة أنك أنت الذي تصنع واقعـك الخاص فبمقدورك أن تغير هذا الواقع.

قاعدة السيطرة (٢):

ابتكـر رؤيـة للواقع أكثر مرونة من خلال عدم اسـتبعاد المعلومات التي لا تريد أن تراها.

قاعدة السيطرة (٣):

التحول إلى التفكير القائم على أساس السيطرة الشخصية يتطلب منك التخلص من شعور الغضب تجاه الآخرين.

قاعدة السيطرة (٤):

سيسـتمر العـالم مـن حولك في التغير شـئت أم أبيـت، تسـتطيع أن تحارب هذا التغير، أو تجعله مطيتك، وتستمتع به.

فكلما اسـتبدلت بفكرة سلبية بديلاً إيجابيًّا سوف تشعر بأثر إيجابي في مستقبلك.

أسـوأ ما في عقلية الضحية هو الغم المسـتمر نتيجة الشـعور بما يمكن أن نسميه الغبن، وهو شـعور ملازم لكل الضحايا، سـواء في علاقاتهم الإنسـانية أو تعاملاتهم التجاريـة، إن خسـارة الفـرد والمجتمع، ومن ثم الوطـن أو الأمة من سـيادة التفكير بطريقة الضحية فادحة جدًّا.

إذا كنت غير ناجح في حياتك العملية فأنت ضحية للفساد الإداري.

obeikandl.com

تأملات في المجتمع

١. المسرح الكبير.
٢. الغيبة.
٣. المرأة.
٤. علاقة المسامحة والمشاحّة.
٥. حكومة الأخلاق.
٦. العدالة والحرية.
٧. قليل من السياسة.
٨. الزمن.
٩. الربا ولحوم السباع.
١٠. إدارة الفراغ.
١١. الأسعار فلسفة حياة.

obeikandl.com

obeikandl.com

١ المسرح الكبير

obeikandl.com

obeikandl.com

المسرح الكبير

يفرض أي مجتمع إنساني على أفراده أنماطاً من السلوك تنسجم مع منظومة قيمه ومعتقداتـه، ولكـن المجتمعات البشرية تختلف عن بعضها في اسـتبدادية هذه الأنماط وقسوة العقوبة التي تنزل بالمخالفين.

المجتمـع العـربي (النجدي بشـكل خـاص) يبالغ في فـرض أنماط محـدودة من السـلوك بما فيها أسـاليب الكلام والمظهر العام...إلخ إلى درجة تجعل الإنسـان الذي يخشـى النقد أو يرغب في العيش بسلام يلتزم بشكل صارم بهذه الأنماط (راجع قائمة الواجبات في فصل تقدير الذات).

وأصبـح مـن الصعـب على الإنسـان أن يكون نفسـه كـما يحب، بـل اضطر كل إنسـان إلى أن يـؤدي دوراً يعتقد أن المجتمـع يكافئه على القيام بـه، ويبالغ بعضهم في هذا التقمص، لدرجة يمكن تشـبيهها بالتمثيل على خشبة مسرح. فتحولت شوارعنا وحاراتنـا وأسـواقنا إلى ما يشـبه المـسرح الكبير والمخـرج (المجتمع) يـوزع الأدوار، ويحدد النصوص، ويعاقب الخارجين عن النص.

الثمن الذي ندفعه مقابل إنتاج هذه المسرحية العبثية باهظ جدًّا. اختفاء الإبداع وظهور الأمراض النفسية وغياب وتهميش للسعادة.

يتسـاءل بعض المسـافرين عن سر تلك النشـوة التي تهبط عليهم عند وصولهم إلى بلد المقصد (المعني هنا المسـافرون الملتزمـون ظاهريًّا ببعض الضوابط) وأعتقد أن ذلك الشعور اللذيذ منبعه هو التمتع بالإجازة الحقيقية من التمثيل، وهو العمل الذي يفرضه المجتمع بشكل مستمر.

obeikandl.com

محاولات الخروج من المسرح دون مغادرة المجتمع تتسبب في عقوبات صارمة. ومـن المعـروف في علم النفـس الإكلينيكـي أن الحاجة البشرية للقبـول والخوف من الرفض أحد المحددات الكبيرة للسلوك البشري.

إحدى الآليات التي يستخدمها المجتمع (المخرج) لمن يرفض التمثيل في المسرح هي إطلاق الألقاب القبيحة. حاول أن تتذكر بعض زملائك في المتوسـطة أو الثانوية أو بعض الأشقياء في الحارة ممن كانت لديهم نزعة فردية استقلالية، فستجدهم الأكثر تعرضاً للألقاب (تسـمى في عامية نجد المعايير ومفردها: معيارة) وقد فطن إلى ذلك عبدالله المحيميد في كتابه الجميل (تقشير).

إن الصعـود لخشـبة المسرح الاجتماعي الكبير بشـكل يومـي ودون انقطاع أمر بالغ الصعوبة مرهق نفسـيًّا مكلف اقتصاديًّا مسـتنزف للطاقات قامع للإبداع. بل إن العبادة الخالصة المجردة تصبح صعبة المنال.

يذكـر أحد الإخـوة أنه يشـعر بمتعة مضاعفـة في الصلاة، عندمـا يكون خارج مجتمعـه أو في الـبر، حيث لا يجد الشـيطان مدخـلاً، ويصبح الإخـلاص أمراً أقرب للتحقيق.

هل من حل يريحنا (ولو جزئيًّا) من هذا العناء اليومي المتصل، ويخلصنا من هذا المخرج (المجتمع) المستبد؟

أعتقـد أن مـن المسـتحيل التمتـع بالروابـط الاجتماعيـة الرائعـة التـي ينميهـا، ويدعمهـا المجتمـع وبنية الأسرة المتماسـكة وفي الوقت نفسـه التخلـص من الفضول والرقابة الاجتماعية المستمرة والسلبية.

وتجربـة المجتمعـات الغربيـة تشـهد على أن تحقيق قـدر كبير من الحريـة الفردية والتخلص من الرقابة الاجتماعية الصارمة أو بحسب عنوان هذا الفصل الخروج من

obeikandi.com

المسرح أو إغلاقه تماماً قد كلف المجتمع تكاليف باهظة جدًّا، وسـبّب ضعفاً كبيراً في بنيته وعلاقة أفراده. وقد صدر كتاب جميل بعنوان:

(THE PARADOX OF CHOICE) للكاتب (Barry Schwartz).

يخالـف الفكرة السـائدة في القيم الغربية التي تقـول: إن مزيداً من الحرية يضفي مزيداً من السـعادة، فقد كشـف الكاتب عن ظاهرة مهمة تقول: إن المجتمعات التي تفرض بعض القيود على أفرادها أكثر سعادة.

إحـدى القواعد الرائعة في ديننا هي الحديث الشريف: (**من حسـن إسـلام المرء تركه ما لا يعنيه**) إلا أننا نتصرف تماماً عكس مقصد هذا التوجيه النبوي الكريم.

فأصبحنـا ننفق كثيراً من الجهد والوقت في أعمال رقابية غير مدفوعة الأجر، بل أحيانـاً نقوم نحن بالعمل، وندفع الأجر، فممارسـة الرقابة وانتقاد الآخرين وإصدار الأحـكام عليهـم فضلاً على أنها تقيد الحريات، وتشـل متعة الحياة فهـي أيضاً عملية مكلفة نفسيًّا كما تشير بحوث علم النفس الإكلينيكي.

في اعتقادي أن كثيراً من التعاسة في المجتمع اليوم مصدرها صعود خشبة المسرح وأداء الأدوار كما يريد المخرج (المجتمع) لا كما يريد الإنسان نفسه.

لا بد هنا من إشـارة واضحة إلى أن بعض القيود ومحددات السلوك منبعها نص ديني قطعي الثبوت والدلالة، وهذه لا مجال لبحثها، بل نجزم أن مردودها على حياة الإنسان أكبر بكثير من تكاليفها الظاهرة علاوة على أنها رصيد للحياة الآخرة.

ولكن مع الأسـف الشديد أن منظومة القيم المحركة للأفراد (اللائحة التنفيذية للسلوك الفردي في أي مجتمع) لا تلتزم بما تفرضه شريعة المجتمع.

وفي مجتمعنا الإسـلامي غالباً ما تكون سلطة المجتمع أقوى من سلطة الدين في فرض محددات السـلوك. لنأخذ مثلاً جريمة كالزنا وضع لها الإسلام قواعد واضحة

obeikandl.com

أهمهـا المسـاواة التامة بين الرجل والمـرأة في التحريم والعقوبـة، ولكن المجتمعات في العالم الإسلامي لا تلتزم بهذا الهدي النبوي الرباني، وإنما تمارس تمييزاً كبيراً في معاقبة الجنسين عند ارتكاب الجريمة نفسها.

السـؤال المهـم إذا اتفقنـا على صعوبة الاسـتمرار في العمـل في التمثيل القسري بشكل يومي: كيف يستطيع من يرغب في ترك هذه الوظيفة (الأشغال الشاقة المؤبدة) المرهقة أن يقنع المخرج بقبول استقالته؟ أو ربما السؤال بشكل أعمق: هل من الممكن إغلاق هذا المسرح الكبير؟

دعونـا نحـاول أن نجيـب عـن السـؤال الثـاني أولاً، ونقـول: إنـه لا يوجـد مجتمـع إنسـاني دون محددات للسـلوك تدفعها منظومة من القيـم والموروثات، ولكن المجتمعات تختلف بشكل كبير حول طبيعة هذه المحددات ودرجة العقوبة المفروضة على المتجاوزين.

مشـكلة مجتمعنـا العـربي (المحافـظ خصوصـاً) هـي في المسـاحة الضيقـة التي تفسحها هذه المحددات للمناورة في السلوك وقسوة العقاب عند التجاوز، ولا بد من الإقـرار بوجود إيجابيات لبعض هذه المحددات، ولكن المتابع لمسـيرة هذه المحددات خلال الثلاثين سـنة الماضية يلاحظ أن جوانبها الإيجابية في ضعف مستمر، وجوانبها السلبية في نمو مطرد.

تأمل مجموعة من المدعوين في مناسـبة ما، وحـاول أن تتذكر كيف كانت الحال قبل ثلاثين سنة، فستجد أن المحددات الإيجابية في هبوط والسلبية في صعود.

هـل هددت الوفرة المفاجئة منظومة القيـم في مجتمع اعتاد على القلة في كل شيء قروناً طويلة؟

obeikandl.com

٢ الغيبة

obeikandl.com

obeikandl.com

الغيبة

مـن يتدبـر منظومـة التجريم والعقوبة في الإسـلام يجد تناسـباً واضحـاً بين أثر الجريمة والعقوبة المترتبة عليها، فمثلاً الزنا جريمة تعريفها الفسيولوجي واحد، لكن أثرها يختلف وبشـكل كبير إذا ما وقعت من شـاب غير متزوج أو شـابة غير متزوجة مقارنـة بآثارها إن وقعت من متزوج أو متزوجـة، وتزداد آثارها إن وقعت مع زوجة جار أو من رجل كهل (أشيمط) أصبح قدوة للناس، وقلت عنده الدوافع، وقد رتب الشرع وعيداً وعقوبة مختلفة لكل نوع، والسرقة كذلك إن وقعت في غير محرز تختلف عن الحرز، وتختلف عن السطو أو قطع الطريق.

أتذكـر هذا دائماً عندما أسـمع الوعيد الوارد في حق مـن يغتاب الناس. ما الأثر الذي تسـببه الغيبة، حتى يسـتحق مرتكبها هذا الوعيد، وحتى يـرد نص قرآني قاطع فيهـا «**ولا يغتـب بعضكم بعضا أيحب أحدكـم أن يأكل لحم أخيه ميتـاً فكرهتموه**»

تشبيه رهيب لممارسة الغيبة.

وعرف الرسول الكريم ﷺ الغيبة ببساطة: «**ذكرك أخاك بما يكره**».

فما الأثر الذي يتركه تفكه مجموعة من الناس بأحدهم، وهو غائب لا يعلم؟

دعونـا نتذكـر ناموسـاً كونـيًّا أصبـح في حكم المسـلمات، وهـو أن الإنجازات الكبرى تحتاج إلى مغامرات وإلى جسارة على الأخطار، وتقبل نسبة عالية من الفشل.

تـكاد ثقافـة المغامرة وقبـول الأخطار العالية تفسر جزءاً كبـيراً من تفوق الأمة الأمريكية وسيادتها على العالم في القرن العشرين.

obeikandl.com

إن انتشار الغيبة وعلم كل فرد بالمجتمع أن الألسن ستلوكه إذا ما فشل أو أخفق في مشروع أو عمل سـترفع تكلفـة المغامرة، وتجعل الفرد يحجـم عن الأخطار ويربي أبنـاءه على سـلوك دروب السـلامة، ومن ثم تشـيع ثقافـة الخنوع، وثقافة الانشـغال بالآخـر، والصـدود عـن الـذات وقبول الواقـع وإيثار السـلامة، وتنتـشر في مجتمعنا منظومة من الأمثال التي تمجد هذا السـلوك: «من خاف سلم» «باب يجيك منه الريح سده واستريح»، «احفظ للناس، ولا تصلح لهم» وهكذا.

يقول المحفز الأسـترالي الشهير بول حنا: «إن الهوة الكبيرة لا يمكن تجاوزها في قفزتين» فالمغامرة وتقبل نسب عالية من الأخطار أمر ضروري لأي مشروع كبيرعلى المسـتوى الاقتصادي أو الاجتماعي. فإن كانت تكلفة الفشـل عالية فقد تسـبب ثقافة المجتمـع التي ترفع تكلفة الفشـل عـزوف أفرادها عن المغامـرات، وتحمل الأخطار، ومن ثم الإحجام وخسارة المجتمع من ثمرات الخطوات الجريئة والقفزات الواسعة.

إذاً، الغيبـة عائـق تنموي خطير، حيث يؤدي شـيوعها إلى رفـع تكلفة الإخفاق وعزوف أفراد المجتمع عن أي مبادرة تحتمل الفشل.

obeikandl.com

٣ المرأة

obeikandl.com

obeikandl.com

المـرأة

عنـد تدبر السياسـات الخارجيـة للـدول الكبرى الممثلـة للحضـارة الغربية في عصرنـا نجد اهتماماً كبيراً مبطناً ومعلناً بموضوع تحرير المرأة، وأحياناً يسـمونه تمكين المرأة وحقوقها السياسية ومساواتها بالرجال.

قرأت كثيراً، وسألت كثيراً من المفكرين، ولم أجد جواباً شافياً للسؤال الآتي:

ما سر اهتمام الغرب بالمرأة؟

نحـن نعلـم أن الغرب منـذ حركـة الإصـلاح الدينـي البروتسـتانتي وانتصار الرأسـمالية وسيادتها يسير وفق فلسـفة نفعية، وتسيِّر سياساته الخارجية المصلحة دون أن ننكر وجود نفس أيديولوجي أحياناً، ولكن تأثيره قليل.

حتى تلك الدراسـات الاسـتشراقية الكلاسـيكية الرصينة والأكاديمية الحديثة التـي كنـا نعتقد أنها أقرب مـا تكون للحياد العلمي، ظهرت بحوث تشـير إلى أنها ما هي إلا توطئة للهيمنة والسيطرة واستغلال الآخر وإيجاد بيئة معرفية تساعد على ذلك (انظر مثلاً إلى دراسة إدوارد سعيد عن الاستشراق).

ما الذي إذاً يدفع الغرب إلى كل هذا الاهتمام بالمرأة في المجتمعات الأخرى؟

لكي لا نتهم بالقفز للنتائج سنقول: إن ظواهر هذا الاهتمام واضحة في الخطاب السـياسي الغربي وفي الإصدارات الفكرية، بـل في المؤتمرات والندوات المدعومة التي من أهمها مؤتمر القاهرة للتنمية والسكان الذي عقد عام ١٩٩٤م.

بل وصل الأمر إلى جهود مشـبوهة لسـفارات الولايـات المتحدة وقنصلياتها في الدول الإسلامية، بعضها نشر بوصفه فضائح في الصحف.

obeikandl.com

كثير من طلبة العلم والدعاة يقدمون لنا جواباً جاهزاً يستند إلى نظرية المؤامرة، ويستشـهدون بالآية الكريمـة: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ أو الآية الكريمة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ ﴾.

ممـا يثير الدهشـة ما ذكـره الزوجـان «ألان»، و«باربرا بيس» في كتابهما الشـهير: «لماذا لا يسـتطيع الرجال أن ينصتوا، ولا تسـتطيع النسـاء قراءة الخرائط» وهو كتاب بيع منه عشرة ملايين نسـخة، يوضح الفوارق الأساسـية بين الرجال والنسـاء، فقد ذكرا باسـتغراب كبير الحساسـية المفرطة التي يتعامل بها المجتمع الغربي اليوم مع هذا الموضوع، الكل لا يريد أن يضبط متلبساً بالقول: إن الرجال والنساء مختلفون، فالذي يبدو أن هناك عقوبة اجتماعية وسياسية كبيرة (وإن لم تكن قانونية) على من يدعي ذلك.

يزعـم المؤلفان أن كثيراً مـن المعلومات التي حصلا عليها جاءت من تصريحات غير مسـجلة، وطلب المصرحون بها عدم ذكر أسمائهم، وبعضها جرى بحثه في غرف مظلمة، خلف أبواب مغلقة، كما ذكرا ذلك حرفـيًّا في مقدمة الكتاب.

سيظل سؤالاً مشروعاً ومفتوحاً عن الأسباب الحقيقية وراء إصرار العالم الغربي اليوم على أن الرجال والنساء متساوون، وفي ترويج القوى الغربية لهذه الثقافة وابتزاز دول العالم الضعيفة ومكافأتها على أدائها في هذا الجانب.

كتـاب الزوجـين بيـس خلاصة عظيمـة لجهود سـنوات من البحـث والتحري والتقـصي قطعـا مـن أجلـه ٤٠٠,٠٠٠ كلم وقابـلا كثيراً من خـبراء العـالم، وقدما عروضاً ومحاضرات في معظم دول العالم (من ضمنها المملكة العربية السعودية).

وقد انتهيا إلى أن العلم يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الرجال والنساء مختلفون تماماً، فليس الذكر كالأنثى على الإطلاق.

وقبلهـا الدكتور «جون جـري» قد وصل إلى النتيجة نفسـها وعبَّر عنها بعنوان رائع: (الرجال من المريخ والنساء من الزهرة).

كـما لو أن الرجال قد قدموا من كوكب المريخ والنسـاء من كوكب الزهرة، وقد استخدم هذا العنوان لكتاب أصدره باع منه ملايين النسخ.

وقد أفاض الكتابان في الفروق الجوهرية فسـيولوجيًّا وبيولوجيًّا وسـيكولوجيًّا بين الرجال والنساء، بحيث تجعل كلاًّ منهما يفكر بطريقة مختلفة تماماً، ويفسر الرسائل بطـرق مختلفـة، ويملـك مواهب مختلفـة، ويصلح لأعـمال مختلفة، تتكامـل فيما بينهما لمصلحة المجتمع، أفراداً ومؤسسات.

يثـار اليـوم كثير من القضايا عن شـهادة المرأة أو التعـدد أو الحجاب...إلخ من الأمـور التـي تخص المرأة، وتقـدم لنا الحضارة ذاتهـا التي آذتنا بهذه الأسـئلة، دلائل مذهلـة عـلى المصدر الإلهي للتشريع الإسـلامي، فقـدرات المرأة تختلـف عن قدرات الرجـل بشـكل جوهري يجعلها تصلـح لأداء مهمات معينة، وتقـل كفاءتها في مهمات أخرى، وإن قدرات الرجل تؤهله لأداء مهمات معينة وتقعد به عن أداء مهام أخرى.

وتوصل الزوجان بيس إلى أن الرجل (ذكر الجنس البشري) ينتمي إلى المجموعة المعـددة مـن النوع الحيواني، فكل خواصه الجسـدية، تدعم هـذا التوجه، وقد عبرا في النهاية عن ذلك بقولهما:

«إن هـذا هـو السـبب الـذي يجعل الرجـال الآن يكافحون لكي يبقوا غير معددين».

وكما يعلم كثير من القراء أن الزواج الإسـلامي كان عرضة لكثير من النقد على أسـاس أنه صفقـة تؤدي إلى تشـييء المرأة، كما يزعمـون. وقد انتهـى الزوجان بيس إلى أن الـزواج صفقـة تقـدم المرأة من خلالهـا الجنس؛ لتحصل على الـزواج (بمعنى

الرعايـة) وهي البنود الأصلية ذاتها في الزواج الإسـلامي تمكـين من المرأة مقابل نفقة من الرجل، ثم تأتي المودة والرحمة والرعاية بوصفها نتائج للمشاركة في الحياة.

وكما بدأنا في مقدمة هذا الموضوع عن سبب أو سر اهتمام الغرب بالمرأة لا بد أن نسأل عـن سر اهتمام مجتمعنـا المحلي بالمرأة، هـذا الاهتمام الذي جعلهـا مصدر كل الشرف ومرجعه ومحور الأخلاق.

إن مـن المثير للتأمـل أن تتركـز قضايا الـشرف في المجتمعـات الصحراوية على المرأة، وتستأثر المرأة في هذه المجتمعات (لا فرق بين أن تكون من قبائل الباكستان أو في قلـب الجزيرة العربية أو في صحـراء الأردن) بمجمل قيم الشرف، فانحسرت قيم أخرى، مثل شرف المهنة وشرف الكلمة.

هـل نسـتطيع القـول: إن المـرأة هـي الجـمال الوحيـد في الصحراء، وإن إنسـان الصحـراء عندمـا يضجـر لا يجد أمامه سـوى المرأة بوصفها مرسـى للحـب والحنان والدفء والعطاء، فلا أنهار ولا أشجار ولا ثمار، ومن ثم نشأ ينظر إلى المرأة بعين قلقة، وأنـزل بها كل ما عنده مـن قيم، قد يؤيد هذا التحليل تشـابه المجتمعات الصحراوية إلى حـد كبـير في هـذه النظرة، حتى مع اختـلاف أعراقهم وأديانهـم، وفي المقابل نجد أن المجتمعات الاسـتوائية الرغيدة أقل المجتمعات تحسسـاً في جانب المرأة، فسواء في الفلبـين أو إندونيسـيا أو تايلند أو البرازيل، ليسـت المرأة هاجسـاً على الإطلاق، ولا يقوم الدين هنا بدور كبير، فالفرق محدود بين الإندونيسي المسلم وغير المسلم.

إحدى أكبر مشكلاتنا مع المرأة في مجتمعنا المعاصر تتمثل في التشابك الذي يبدو أنـه غـير قابل للفك بين النصوص الشرعيـة حول طبيعة العلاقة بـين الرجل والمرأة، ومـا زودتنا بـه حياتنا الصحراوية والقبليـة، إن أي متأمـل لإدارة العلاقة بين الرجل والمـرأة في مجتمعنـا، وأي مطلـع على طبيعة هـذه العلاقة في المجتمـع المرجعي النبوي والراشدي، يدرك أن هناك فارقاً كبيراً بينهما.

obeikandl.com

إن مـن المناسـب أن نراجع دائـماً مجموعة النصـوص التي وصلتنا عـن المرأة في المجتمع المثال (النبوي / الراشدي)، ومثال على هذه النصوص، تذكر قول الحق تبارك وتعالى في قضية شهادة الرجل والمرأة: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ دائماً ما يستشـهد بهذه الآية على اتهام المسـلمين لعقل المرأة، ولكنهم ينسـون الوجه الآخر مـن أوجـه متعددة تحملهـا هذه الآية الكريمـة، وهو حضور المـرأة مجالس الصفقات وشـهاداتها عليهـا، ومعلـوم أن الشـهادة تتطلـب حضـوراً جسـديًّا وذهنيًّـا، فليس لغائب شهادة.

هنـاك نصوص متضافـرة ومتوافرة تصف وضعيـة للمرأة في مجتمـع النبوة وما بعـده، غـير تلك التي نحن عليها الآن، ما يعطينا دلالـة واضحة على مدى الخلط بين الديني والعرف الاجتماعي في زماننا المعاصر:

- روى مسـلم عن أم عطية ﵂ قالت: غزوت مع رسـول الله ﷺ سـبع غـزوات أخلفهـم في رحالهم، فأصنع لهـم الطعـام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى.
  - سؤال: لو أن بلداً إسلاميًّا قد وضع نظام تجنيد للمرأة، كيف ستكون ردود أفعالنا؟
- روى البخاري ومسـلم عن عائشـة ﵂ قالت: كن نسـاء من المؤمنات يشـهدن مـع رسـول الله الفجـر متلفعـات بمروطهـن، ثـم ينقلبن إلى بيوتهن، حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس.
- روى البخـاري ومسـلم عـن أنـس ﵁ قـال: رأى النبـي ﷺ النسـاء والصبيـان مقبلـين، مـن عـرس، فقـام النبـي ﷺ مُمْثـلاً، فقـال: **(اللهـم، أنتـم مـن أحـب النـاس إلي)** قالهـا ثـلاث مـرات.

obeikandl.com

- روى مسلم عن فاطمة بنت قيس ﵂: فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي (منادي رسـول الله ﷺ) ينادي: الصلاة جامعة... وفي رواية: فنـودي في الناس أن الصلاة جامعة، فانطلقت فيمن انطلق من الناس، فكنت في الصف المقدم من النساء، وهو يلي المؤخر من الرجال.

في مجتمعنـا الآن تياران يتحالفان دون وعيهما لإلحاق أكبر أذى ممكن بالمرأة، مع ظاهر العداوة الشديدة بينهما: تيار يطلق عليه أحياناً ليبرالي أو تغريبي، سمِّه ما شئت لـه رؤية تتمثل في أن تلحـق المرأة في بلادنا بالمرأة الغربية؛ لتتحقق لها المسـاهمة في بناء المجتمع، وتستمتع بثمرات حقوقها.

التيـار الثـاني استشـكلت لديـه خلفياته المسـتمدة مـن النص الدينـي والإرث الاجتماعـي، فألبـس عـادات المجتمع وتقاليـده لبوس القداسـة الدينيـة وإلزامياتها، فأوجد رؤية لا تخرج فيها المرأة من البيت إلا للضرورة.

الغريـب في الأمـر أن كل موقف من أي من هذين النقيضين يدعم بشـكل قوي موقف الطرف الآخر.

إننـا في أمس الحاجة اليوم إلى حوار صادق مرجعيته نصوصنا الدينية والمجتمع المثال (النبوي / الراشدي)، لإدارة العلاقة الثنائية التفاعلية بين المرأة والرجل بشكل يكفل سلامة الأمة وصيانة مستقبلها.

الشيء الذي لا بد أن يدركه بعض إخواننا من حسـني النية أن أي تضييق على حركـة المـرأة لا يسـتند إلى أصل ديني قطعي الثبوت والدلالة سـيهزم، وسـيؤدي إلى مضرة أكبر، إنه أشبه بساتر رملي لوادٍ جارف كل ما يؤديه هو تجميع الماء مدة محدودة، ثم ينهار الساتر مدمراً ما خلفه.

وأخـيراً تزخـر - بفضـل الله - مجتمعاتنـا اليـوم بأفـذاذ مـن النسـاء والرجـال استطاعوا، تخليص أنفسهم من إرث العادة والرجوع إلى منبع الخير وأصل كل هداية:

obeikandl.com

كتـاب الله وسـنة نبيه ﷺ وتطبيقهـما الحي بالمجتمع المرجعـي، يكافح هؤلاء الأفذاذ أكثرية تتمتع بالقوة المادية وبالمؤثرات الإعلامية والطغيان السياسي.

تحارب الأكثرية اليوم في العالم من أجل عالم يكون فيه الرجل والمرأة متساويين[١] تمامـاً، بحيـث تذوب الفروق «الجندريـة[٢]» في الفروق البيولوجية والفسـيولوجية، وتكافـح الأقلية من أجل الدفاع عن شرع يؤكد كرامتهما واختلافهما في المسـؤوليات والواجبـات، ليـس ذلـك فحسـب، بـل يرسـم مشـهداً بديعـاً للتكامـل في الأبعـاد النفسـية والاجتماعية والوظيفية والإنتاجية، ويعـترف بإيجابيات كل طرف، ويثمرها بشكل ذكي.

تذكـروا سـؤالنا المفتـوح عن سر اهتـمام الحضـارة الغربية اليوم بالمـرأة الذي لا نستطيع أن نجزم بوجود إجابة مقنعة له؟

لـدي يقـين بـأن العالم يومـاً مـا سـيتذكر باعتـزاز أولئك الأفـذاذ الذيـن ظلوا يكافحـون من أجـل تمايز الرجال عن النسـاء؛ لحفـظ توازن الكون وضـمان ديمومة العلاقة واستمرار حياة البشر السوية.

(١) على الرغم من جهل كثير من المشاركين بالأهداف الحقيقية لهذه الحرب.

(٢) في اللغة الإنجليزية يستعملون كلمة (gender) جندر للدلالة على التمايز الاجتماعي والثقافي بين الذكر والأنثى، وكلمة جنس(sex) للدلالة على التمايز البيولوجي والفسيولوجي، ويترتب على مفهوم الجندر إشكاليات عدة، ولاقى معارضة في ثقافات كثيرة ومنها الثقافة الإسلامية، وذلك أنه يرتكز على المقوم الثقافي الاجتماعي في التمييز بين الذكر والأنثى، فالمجتمع هو الذي يجعل من الأنثى «أنثى» ومن الذكر «ذكراً»، وفي ذلك تطرف جلي للتقليل من العوامل الفسيولوجية.

obeikandi.com

obeikandl.com

٤
علاقات المسامحة والمشاحّة

obeikandl.com

obeikandl.com

علاقات المسامحة والمشاحَّة

تقوم بعض التعاملات على «المسامحة» وتقوم أخرى على «المشاحَّة»، فالهبات مثلاً أساسها التسامح، والديون أساسها المشاحَّة.

كثير من مشكلاتنا مصدرها الخلط بين هذين المفهومين.

نطبق قوانين المسامحة على تعاملات المشاحَّة، وقوانين المشاحَّة على تعاملات المسامحة.

عندما تنشأ التجارة العائلية تستمر قوانين المسامحة (المطبقة على علاقات العائلة الاجتماعية) بإدارة التعاملات التجارية، وتنمو التجارة، ويغيب المؤسس، ثم يفطن الجميع إلى أن التعامل التجاري أساسه قائم على المشاحَّة، والنهاية هي أقصى درجات المشاحَّة، وهو التقاضي مع ما يتبعه من تشهير وإساءة فهم.

العلاقة الزوجية تقوم على المسامحة، فإن بدأ الزوجان بتطبيق قوانين المشاحَّة أفسدا العلاقة، فعلت لك كذا، وفعلت أنت كذا، وتبدأ الحسابات، ولا يؤدي ذلك إلا إلى الشحناء، وقد تنتهي بأقصى درجات المشاحَّة، وهو الطلاق.

لا بد أن نميز في علاقاتنا بين ما يقوم على المشاحَّة، وما يقوم على المسامحة، فعلى سبيل المثال العلاقة مع الأخ تقوم على المسامحة، والعلاقة مع الشريك تقوم على المشاحَّة، إن تطبيق القانون المناسب في كل حالة يضمن صحة العلاقة واستمرارها، بل نموها.

وتصبح العملية أصعب عندما تدخل مع صديق في مشاركة تجارية، عندها لا بد أن تحذر من الخلط؛ حتى لا تفقد الصديق، وتفقد التجارة.

obeikandl.com

إن الفصـل التـام بين التعاملات القائمة على المسـامحة، والتعاملات القائمة على المشاحَّة أمر في غاية الأهمية؛ لضمان جودة الحياة ونمو العلاقات.

يصـدم بعـض الناس، عندما يفاجئهـم صديق حميم بحسـابات دقيقة في تعامل تجـاري، فقد أشـكل عليهم أنهم يتعاملون مع شـخص مختلف، ففـلان الصديق غير فلان التاجر.

تأمل:

في علاقات المشـاحَّة التوجيه الرباني: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾.

وفي علاقات التسامح: ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾.

وفي رأيي أنه من المفيد تنفيذ أعمال بحثية وفكرية للاستثمار في مفهومي المسامحة والمشاحَّة تسـتهدف التنقيب المعمق في البنية الفلسفية والنفسية والاجتماعية، ونجهد لأن نضع حدوداً بين تضاريس كل مفهوم وتطبيقاته في السياقات المختلفة.

obeikandl.com

٥ حكومة الأخلاق

obeikandl.com

obeikandl.com

حكومة الأخلاق

قـد تكون الحكومة بمفهومها السـياسي أحد أكثر الأشـياء أهمية في حياة البشر، والسـبب بسـيط، حيـث إن هناك كثـيراً من الوظائف الأساسـية في حياة الإنسـان لا يستطيع القيام بها بمفرده، وإنما يحتاج إلى الحكومة للقيام بها.

تصور أي مجتمع من الناس دون حكومة تفرض الأمن والنظام، وترعى الحقوق والمصالح، شاهدنا جميعاً في العقدين الماضيين انهيار الحكومة في بعض الدول، وكيف أصبحت حال الناس عندها.

هنـاك حكومـة أخرى ليـس لها كيـان مؤسـسي، ولا أجهـزة ولا موظفون ولا تفرض عقوبات ولا تدفع رواتب، لكنها في غاية الأهمية في حياة الناس، دعونا نطلق عليها الحكومة الأخلاقية.

عندمـا نتعامل مـع أحد النـاس نفترض أنه: يصـدق في الوعد، يحفـظ الأمانة، يحافظ على السر، يتحاشى أن يقول ما ليس فيك... إلخ.

عندمـا تنهـار الحكومـة الأخلاقيـة (أو منظومـة القيـم) تصبـح حيـاة النـاس شقاءً وعذاباً.

في كل حالـة تعامـل تبذل جهـداً مضاعفاً مثـلاً للتأكد من أن فلانـاً من الناس سيحضر في الموعد المحدد، تواصل الاتصال، وتعيد التذكير، وتقلق حتى حضوره.

وعندما يشتكي إليك عميل في مكتب تنفق جهداً هائلاً لمراجعة إفادته، وعندما تتحقق منها تجدها بعيدة كل البعد عن الواقع؛ لأن النسبة العظمى من هذه الشكاوى يتضح في نهاية الأمر أنها كيدية، أو تعطي نصف الحقيقة.

obeikandl.com

في المجتمعـات التي لديهـا «حوكمة أخلاقية» قوية يعيـش الناس بأقل قدر من الإنفاق على مثل هذه التعاملات.

تقف أمام أحد الكاونترات لطلب خدمة، مثل استئجار سيارة، فيدون الموظف أجوبتك دون حاجة للوثائق والتأكد.

يحدد لك صديق موعداً، فيحضر في الوقت المحدد والمكان المحدد.

يخبرك مأمور استعلامات عن شيء ما، فلا تحتاج إلى أن تسأل غيره للاطمئنان.

وعلى النقيض تعيش المجتمعات التي انهارت حكوماتها الأخلاقية (أو فسدت) في جحيم السؤال المستمر والتوثيق المضني وحرق الأعصاب في الانتظار.

كيف نبني الحوكمة الأخلاقية؟ موضوع فلسفي عميق تتشابك فيه السياسة مع الدين مع الأنثروبولوجيا، ولكن ضعف الحكومة الأخلاقية أو انهيارها على مستوى التعامل يشبه مأساة ضعف الحكومة السياسية، أو غيابها في مسألة الأمن والنظام.

obeikandl.com

٦ العدالة والحرية

obeikandl.com

obeikandl.com

العدالة والحرية

يكاد المفكرون يتفقون على أن العدالة هي القيمة الأعلى في منظومة القيم في الحضارة الإسلامية، وفي ثقافة المجتمع المسلم، فعلى العدل كما نقول قامت السماوات والأرض، وفي نص القرآن: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾، يقابلها في الحضارة الغربية قيمة الحرية بوصفها أعلى قيمة في هرم القيم الغربي، بل إن الساسة الغربيين إذا أرادوا أن يحشدوا، أو أن يجيشوا شعوبهم على عدو خارجي اتهموه بأنه يهدد حريتهم، ويجادل بعض المفكرين بأن الحرية إذا طبقت بشكلها الصحيح فهي تجلب معها العدالة، ومن ثم تتحقق هاتان الفضيلتان.

ويحيل الغربيون أصل قيمة الحرية إلى إرثهم اليوناني في أثينا القديمة، فيرجعون هذه الفضيلة العظمى عندهم إلى الحضارة الهيلينية.

يعتقد كثير من أبناء المجتمع العربي المسلم، أن الحرية التي يقدمها الغربيون هي تلك التي تُعنى بالجوانب الشخصية كحرية اللباس والعلاقات، غير أن الحقيقة أن هذا الجزء ليس هو الأكثر أهمية، بل إن المجتمعات الغربية تعلي من قيمة الحرية السياسية، وهي الضاربة في أعماق العقلية الغربية، ودفعت تلك المجتمعات أثماناً باهظة من أرواح أبنائها لتحقيق هذه الفضيلة وحمايتها.

من هذه القيم العليا تنحدر كثير من القيم الفرعية والسلوكيات الاجتماعية، بل الأنظمة والقوانين، وقد سألت أحد أساتذة القانون في جامعة هارفرد في أثناء محاضرة عن : «خيار الرجوع عن الصفقات في حال ما إذا ثبت وجود غبن كبير فيها؟»، فأجابني بطريقة حاسمة بأنه لا مجال مطلقاً لمثل هذا الأمر مهما كان مقدار الغبن،

فأخبرتـه عن وجود تشريع «خيار الغبن» في شريعتنا الاسـلامية الذي يكفل للطرف المغبون وفق ضوابط وشروط الحصول على سـعر عادل لبضاعته أو اسـترادادها، وقد ارتبط في ذهني هذا الأمر مع منظومة القيم، فإن كانت الحرية هي القيمة الأعلى، فلن يكـون هنـاك مجال لخيار الغبـن، وفي الثقافة التي تضع العـدل في المرتبة الأعلى لن تقر حصول ظلم واضح في أي صفقة ما، بحجة تحقيق الحرية لطرف ما مع ما يسبب ذلك من الظلم لطرف آخر، وفي هذا تجسـيد لروعة الروح الإسلامية في التعاطي مع ملفّي العدالة والحرية في إطار إنساني.

obeikandl.com

٧ قليل من السياسة

obeikandl.com

obeikandl.com

قليل من السياسة

مـن أكثـر ما يتعرض للنقـد في تاريخنا الإسـلامي مفهوم «دار الإسـلام» و «دار الحـرب» والجهاد بشـكل عام، والمفهومان غـير متفق عليهما في الفقه الإسـلامي، ولا في التطبيـق العملي في الدول الإسـلامية، مـا يتعرض للنقد والاسـتغراب في موضوع الجهاد هو تلك الحرب التي تنشأ من أجل تغيير دين لمجتمع ما على الرغم من أن كثيراً من المسـلمين يرى أن مثل هذه الحرب تنشـأ من أجل حماية حرية الاختيار، بمعنى أنها موجهة للنظام السـياسي الذي يمنع وصول الدعوة الإسـلامية إلى تجمع إنساني، وأما تصنيف دار الحرب ودار الإسلام في مفهومه البسيط فهو أن هناك قوانين وأنظمة تطبق على من يسكن في دار الإسلام وقوانين أخرى تطبق على من يسكن في دار الحرب.

الغريب في الأمر أن من يقرأ المشروع الأمريكي في العراق سـيصيبه الذهول من أن التبريـر الذي اسـتمدت منـه هذه الحـرب مشروعيتها في النهاية هـو تحرير العراق وتحويله إلى بلد ديمقراطي.

باختصـار، هـي حرب إيديولوجيـة لتحويل مجتمع يعيش بطريقـة ما إلى مجتمع يعيـش وفق رؤية مَنْ شـن الحرب! ما الفـرق بين مثل هذه الحرب، ومـا يزعمون أنه «جهاد ظالم»؟

الأمر الآخر أن الولايات المتحدة الآن تطبق قوانين مختلفة تماماً خارج الولايات المتحدة؛ لانتهاك حقوق الناس، ومعلوم أن سبب إيجاد معسكر (جوانتانامو) وكونه خارجاً عن أراضي الولايات المتحدة؛ حتى تسـتطيع المؤسسـة السياسـية والعسكرية الأمريكيـة التـصرف دون قيـود أو وفـق أنظمـة أخـرى، ألا يعني ذلك وجـود «دار أمريكا» و«دار حرب»؟

obeikandl.com

٨ الزمن

obeikandl.com

obeikandl.com

الزمن

ناموس عظيم وعجيب يبدو أن سره لم يأذن الله له بالظهور بعد.

ما طبيعة الزمن؟

سؤال قد يبدو سخيفاً لكثير من الناس، فقد لا يرى السواد الأعظم من الناس في هذا الأمر ما يدعو إلى التساؤل، غير أن المتتبع لتاريخ العلوم والحضارات سيمر دون شك على الحيرة الكبرى التي واجهت المتأملين في هذا الناموس العظيم من فلاسفة ومفكرين.

تعرض الفلاسفة الطبيعيون لهذا الموضوع، وربطوا ماهية الزمن بالحركة وبشكل أدق بعدد الحركة وأنه يقاس بالحركة العامة للكون، ثم جاء أرسطو، فتحدث بشيء من التفصيل في كتاب الطبيعة عن إشكالية الزمان، غير أنه ارتكز في حديثه على ارتباط الزمان بالحركة، وينقل الدكتور عبدالرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية عن القديس أوجستين أنه كرس لمشكلة الزمان صفحات جميلة في كتابه (الاعترافات) وينقل لنا هذا النص:

«يبدو لي أن الزمان امتداد، ولكن امتداد ماذا؟ لا أدري! أللروح... ماذا أقيس حقاً؟ يا إلهي، حينما أقول مثلاً: هذا الزمان أطول من الآخر بوجه عام أو بوجه خاص، إن هذا الزمان ضعف الآخر، إنني أقيس الزمان أعرف ذلك، ولكن لا أقيس المستقبل؛ لأنه لم يأتِ بعد، ولا الحاضر؛ لأنه آن، ولا الماضي؛ لأنه ليس حاضراً بعد، فماذا أقيس إذاً؟..إلخ» .

دليل واضح على الحيرة.

obeikandl.com

ومع نيوتن أشـهر علماء الطبيعة في التاريخ البشري، الزمان مطلق، وهو الزمان الحقيقي الرياضي، وهو قائم بذاته، مسـتقل بطبيعته غير منسـوب إلى شيء آخر، يسير باطراد، وقد وضع برجسون الذي كرس لمشكلة الزمان بحوثاً كبيرة تميزاً جميلاً وحادًّا في الوقت نفسه، بين الزمان والمكان، ترجمه عبدالرحمن بدوي على النحو الآتي:

الزمان يعني	المكان يعني
المدة الحقيقية	الامتداد
الكثرة الكيفية	العدد
اللاتجانس	التجانس
التوالي	المعية، التتالي
الكيف	الكم
التغير	الثبات
البطون	الخروج
الاتصال النفسي	الانفصال
اللاممتد	الممتد
النفوذ المتبادل	عدم قابلية النفوذ
التلقائية، الحرية، التطور الخالق	الضرورة
الشعور	الآلية
الروح	المادة

وفي اعتقادي أن إحدى أبرز المحطات في تصور مفهوم الزمان هي تلك النظرية التي تعرف بالنسـبية في فيزياء آينشـتاين، ومن تتبع الإرهاصات الكبرى التي سبقت ظهـور هذه النظريـة، وخصوصاً في القرن التاسـع عشر الميلادي يجـد أن الزمان كان حاضراً، وهو المشـكلة والحل في الوقت نفسـه، وعندما اسـتقر في ذهن آينشتاين (كما أثبتتهـا تجارب عدّة) أن سرعـة الضوء ثابتة، ولا تعتمد على حركـة الراصد كان لابد مـن التوجـه للزمان؛ للخـروج بحل مقبول، وبعـد معاناة رهيبة خرج آينشـتاين على

العـالم بمفهوم النسـبية، وأصبح الزمان على ضوء هذه النظرية نسـبيًّا وبشـكل أدق لم يعد مسـتقلاً بذاته، وإنما له ارتباط بالمكان، حتى إن بعضهم عدّه بعداً رابعاً في الكون مـع الأبعاد الثلاثة للمكان. وقدم لنا آينشـتاين تنظيراً جديداً يقول: (إن الزمن يتباطأ مع السرعة، وتخيل نفسـه راكباً على رأس شـعاع ضوئي، وافـترض أن الزمن يتوقف تماماً، عندما يسـير أي كائن في الكون بسرعة الضوء) ويتباطأ الزمن على هيئة معادلة رياضية مع السرعة، وقد أجريت تجارب سـاعات ذرية بالغة الدقة حملت في طائرات تدور حول الأرض، وأثبتت النتائج صدق فرضية آينشتاين، ومن هذا المنطلق جاءت معضلـة التوءمين اللذين مكث أحدهما على الأرض، وسـافر الآخر بسرعة قريبة من سرعة الضوء إلى أحد الأجرام السـماوية البعيدة جدًّا، وعندما عاد بعد خمسـين سـنة وجد أخاه التوأم قد كبر، وشاب في حين هو لا يزال في طفولته المبكرة. المهم في الأمر أن علماء الطبيعة الآن يتصورون الزمان بشـكل نسـبي، له ارتباط بالمكان، بمعنى أنه لا يوجد شيء اسـمه (الآن) لشـيئين منفصلين مكانيًّا، لا شك في أن مثل هذا التصور عسير على الفهم.

غـير أنـه حتـى الآن، فقد اسـتطاعت النظريـة النسـبية أن تصمد أمـام كثير من الظواهر الكونية، واستطاعت تفسيرها بنجاح.

ينقسـم النـاس في إدراك أثر الزمن على تصوراتهم للأشـياء وحكمهم عليها إلى ثلاثة أضرب:

الأول: لا يحسـبون للزمـن حسـاباً، ويجـزم أن حكمه على شيء ما لـن يتغير مع مـرور الزمـن، فيتعرض لقرار أو تـصرف قديم بالنقد والتقويم دون أي حسـاب أو إدراك لأثر الزمن، ولا يتوقعون أن يحدث تغير كبير في حكمهم على الأشياء مع مرور الوقت، وهؤلاء هم أعجل الناس في إصدار الأحكام وانتقاد الآخرين. (هذا القسـم يتأثرون كثيراً بـ «المنطق القديم» الذي سبق الإشارة إليه).

الثاني: وهؤلاء يدركون أن للزمن أثراً قويًّا على تصور الأشـياء، ومن ثم الحكم عليها، فيؤثرون تعليق أحكامهم على الأحداث السـابقة، ويبدون في غاية الحذر عند سؤالهم عن رأيهم أو حكمهم في أشياء مستقبلية.

الثالث: وهؤلاء أعطاهم الله القدرة على إدراك أثر الزمن والخروج برؤية صائبة عن مدى هذا الأثر، ومن ثم يحققون السـبق، سـواء في مشروعات تجارية أو قرارات إدارية، وفي الغالب ينتمي الساسة والحكماء وكبار رجال الأعمال إلى هذا القسم.

كنت مع زميل في مؤتمر منظمة العواصم الإسلامية بطهران عام ١٤١٨هـ وتمت اسـتضافتنا في أحسـن فنادق طهران، وخلال تجاذب أطراف الحديث في قاعة الفندق أخبرني هذا الزميل بأنه جاء إلى الفندق نفسه قبل عشرين سنة؛ ليشترك مع لجنة سعودية لشراء مبنى للسفارة السعودية في ذلك الوقت، وعندها سألته: كيف يقارن بين الحال آنـذاك والحـال الآن؟، حيث كانت زيارته قبل الثورة، ونحـن نجتمع الآن بعد مرور وقـت على قيـام النظام الجديد في إيران، فأطربتني إجابتـه المليئة بالحكمة، حيث قال:

كنت أنا في ذلك الوقت شخصاً مختلفاً، ويصعب علي الآن أن أصدر حكماً.

ومقولـة صاحبي تذكرني بالمقولة السـاخرة لـ «جورج بارنارد شـو» حين قال: الشـخص الوحيـد الـذي أعرف أنه يتـصرف بعقل هو الخيـاط، فهو يأخذ مقاسـاتي من جديد في كل مرة يراني! أما الباقون فهم يسـتخدمون مقاييسـهم، ويتوقعون مني أن أناسبها.

إحـدى أهـم دلالات النضج البشري تأجيل اللـذة، فالمعروف عن عظماء البشر قدرتهم العجيبة على تأجيل اللذة في مقابل التفكير الطفولي الذي غالباً ما يوصف بأنه (هنا والآن).

ما الذي نستطيع أن نفهمه من هذا؟ هل نستطيع أن نقول: إن العظماء يحترمون الزمن، ويعطونه فرصة للعبور والمرور، حتى تتحقق مطلوباتهم؟

تأمل الصبر، ما معنى الصبر؟ نحن نعلم أنه واحد من أعظم الصفات الحميدة التي يتحلى بها البشر، وتقرأ في القرآن الكريم أن الله عز وجل: ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بل هناك من يرى أنه قد كسر الإعراب في آية البقرة من أجل الصابرين في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

التعريف النمطي أو الكلاسيكي للصبر في موروثنا الإسلامي هو أنه نقيض الجزع، ويستشهد أنصار هذا التعريف بأسلوب المقابلة، كما في الآية الكريمة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، فهو إذاً حالة نفسية للإنسان يواجه بها الأحداث.

في اعتقادي أن الصبر أساساً مرتبط بالزمن، فكأن الإنسان عندما يصبر يحترم ناموس الزمن الذي لا بد أن يمر دون إزعاج، وهذا الناموس الذي هو الزمن لن يستأذن أحداً في المرور، وإنما الصابرون يتحملون مروره برضا واحتساب، في حين يكثر الجزعون من التسخط والاستدراك.

لاحظ أن تعريفنا للصبر، وهو السماح للزمن بالمرور دون ضجر يساعد على تفسير تفاوت بني البشر في حظهم من هذه الجبلة العظيمة، فأهل الصحاري أقل صبراً وأكثر انفعالاً من أهل الأنهار والبحار، أما قاطنو الجيوب الاستوائية فتكاد تجزم أنهم لا يعرفون الانفعال مطلقاً ولديهم صبر غير محدود[1]، هل يمكن أن نقول: إن مرور الزمن

(١) يظل السائق الإندونيسي ينتظر أسرة في قصر أفراح خمس ساعات دون ملل.

في المجتمعـات الرغيـدة يثمـر نفعاً، أما في إنسـان الصحـراء فلا جديد، ما جعل إنسـان الصحراء يتخذ موقفاً سـلبيًّا من مرور الوقت، هذا التحليل يسـتند إلى شـخصنة الزمن وعدّه كياناً مستقلًّا مفرداً بذاته.

هل يمكن أن نعرف الزمن بأنه إذن الله لحدث أو مخلوق بالتجلي؟!

يستفيد الشيخ محمد متولي الشعراوي -رحمه الله- من الضمير المتصل «له» في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أن الأشياء والأحداث كلها قد تم خلقها وإيجادها، ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وإنما يأتي إذن الله تعالى لحدث أو شيء بالظهور.

تأمل:

«**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**». أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

obeikandl.com

٩ الربا ولحوم السباع

obeikandl.com

obeikandl.com

الربا ولحوم السباع

الربـا محـرم في شريعة الإسـلام وفي الشرائع السـماوية السـابقة، فنحن نعلم من القرآن يقيناً أن اليهود قد نهوا عن الربا.

كثـيرة هي البحوث التي تناولت الإشـكاليات الاقتصاديـة للربا، فهو في مجمله آلية تجعل الغني أكثر غنى والفقير أشد فقراً.

دعونـا نتعـرف إلى طبيعـة الربـا، فالربا في اللغـة: هو الزيـادة، وفي الاصطلاح الشرعـي: ربـا الزيـادة هو أن تأخذ زيـادة في تناول تجـاري من البضاعة نفسـها، فإذا أعطيت إنساناً ذهباً بشكل معين، وأخذت أكثر منه أو أقل فهي صيغة ربوية، وكذلك الحال في الأصناف الربوية الستة التي أوضحها الرسول ﷺ في الحديث المعروف.

أما ربا النسيئة فهو قرض مضمون للمقرض مع زيادة على المقترض.

إذاً يمكننـا أن نقـول: إن الربا هـو مال ولد مالاً دون عمـل، والعمل هنا إما أن يكـون بدنيًّـا كالحركـة أو ذهنيًّا كالأفـكار والمبادرات أو نفسـيًّا، كالقلـق في المغامرة، فالصفقـة الربوية تضمن الزيادة دون أي نوع من العمل، وكأن الإسـلام عندما حرم الربا وحرم القمار يريد أن يعيش الإنسان في حد محسوب من المغامرة، فلا يجوز له أن يعيش دون أن يشـارك بني الإنسـان تحمل المغامرات، ولا يقبـل منه أن يتقبل مخاطرة كمخاطرة القمار.

نحن نعلم أن أكل لحوم السباع محرم، ومن المؤكد أن حكمة الباري -عز وجل- حـول هذا التحريم متعـددة الجوانب، لكننا قد نقول من وجـه خاص - ونحن نعلم

obeikandl.com

أن السـباع تتغذى على اللحوم- : إن لحم السـباع هو لحم تولد عن لحم، فكأن الدين الإسـلامي لا يقبـل قطع الطريـق في دورة الحياة ذات النفع الأعـم، فلحم الأنعام تم بنـاؤه عـلى علائق مرت بدورة زراعية عمت فائدتها كثيراً من الناس، أما لحم السـباع فقد نُمّي على لحم بشكل مباشر، وإن المتاجرة بالوسائل المشروعة توسع دائرة الانتفاع على خلاف الربا الذي يتولد فيه المال مباشرة بواسطة المال.

لاحظوا أن المراء منهي عنه في الشريعة الإسلامية، والمراء ليس:

استذكاراً يولد فهماً جديداً.

ولا هو وعظ قد يغير بعض السلوكيات.

وليس جدلاً قد يؤدي إلى الاقتراب من الحقيقة.

وليـس تفاوضـاً قد يوصل إلى صفقة ما، إنما هو كلام يولد كلاماً دون فائدة، بل في الغالب يوصل إلى الشحناء والتباغض.

المـراء في اللغـة: مأخوذ من الاسـتمرار في اسـتدرار حليب الأنعام بعـد انتهائه وفراغ الضرع من الحليب، وهو بذلك استعارة بليغة، فقد يتولد عن هذه العملية دم.

وتأمل أيضاً الغيبة، فهي حديث يولد حديثاً دون فائدة، فهو أيضاً حديث محرم.

إذاً، أحد مقاصد الإسلام الكبرى في التعاملات على مختلف أنواعها هو توسيع دائـرة الانتفـاع، وكلما اتسـعت هذه الدائرة كان العمل أحسـن، فالربـا مال تولد عن مـال، ولحوم السـباع لحم تولد عـن لحم، والمـراء كلام تولد عـن كلام، وجميعها غير مقبولة في شريعة الإسلام.

obeikandl.com

١٠ إدارة الفراغ

obeikandl.com

obeikandl.com

إدارة الفراغ

«تتمدد الأشياء لتملأ الفراغات المتاحة أسرع مما هو متوقع».

هذا قانون من قوانين الهندسة الصناعية منذ سمعت عنه قبل عشرة أعوام، وأنا أتتبع مصداقيته، فوجدته على درجة عالية من الموثوقية.

عند النظر في الفراغات المكانية المتاحة في منزلك تذكر كم استغرق من الوقت أهل بيتك ليملؤوا مستودعاً جديداً في منزلك، غالباً ستصيبك الدهشة للسرعة التي امتلأ بها المستودع الجديد، الأمر نفسه ينطبق على الأدراج في دولاب اشتريته توًّا أو مظلة في مزرعة، أو مكاتب جديدة في موقع عمل، أيًّا كان الفراغ المكاني، فإن الأشياء من حولنا تتمدد لتملأه بسرعة.

وإدارة الفراغ المكاني واحدة من أبرع المهارات الهندسية وأكثرها أهمية، تأمل الطائرة أنبوب لا يصل طوله إلى خمسين متراً وعرضه أقل من أربعة أمتار وارتفاعه قرابة مترين، صمم من الداخل ليستضيف أربع مئة مسافر تقريباً بأمتعتهم، ويوفر لهم وجبتين وأحياناً أكثر من الطعام والمشروبات الباردة والساخنة، ومخازن لثيابهم ومكتبة لجرائدهم ومجلاتهم وخزائن للحفهم ووسائدهم مع دورات المياه ووسائل الترفيه البصرية والسمعية، باختصار كل ما يحتاجون إليه أو تعودوا على استخدامه في منازلهم أو مكاتبهم في يوم كامل، كل مرة أسافر بالطائرة مسافات بعيدة تأسرني براعة المهندسين في الإفادة من الفراغات المكانية.

الأمر نفسه ينطبق على إدارة الفراغ الزماني، فالقانون الذي استفتحنا به هذا المقال يصلح في اعتقادي للتطبيق على الفراغ الزماني، فعندما يتاح فراغ زماني غير

obeikandl.com

مستغل، ستتمدد الأنشطة قليلة الفائدة، وربما الضارة، كمشاهدات التلفاز مدداً طويلة أو الحديث في الهاتف أو إدمان قراءة الجرائد، وإذا لم يمتلئ الفراغ المتاح بمثل هذه الأشياء فقد تتمدد إليه أنشطة أحياناً بالغة الخطورة، مثل أحاديث النفس المرضي والأوهام والوساوس، بل ربما يصل الأمر إلى الاكتئاب والقلق، وهو في اعتقادي تبرم رهيب بمرور الزمن.

عندما يتأمل الإنسان فروض الصلاة يصاب بالدهشة والذهول من قدرة هذه الشعيرة العظيمة على التمدد والانكماش بحسب حال الإنسان، فرجل الأعمال المشغول جدًّا، سواء في حِلّ أو ترحال لن يحتاج في اليوم والليلة إلى أكثر من ساعة في حال الإقامة، وربما نصف ساعة فقط في حالة السفر للوفاء بركن الصلاة أو أداء فريضة الصلاة مع مرونة كبيرة في التوقيت، بل غالباً ما تكون مواعيد الصلاة في أوقات فراغات مبرمجة من غير المسلمين، ومن دون وعي بذلك.

وفي المقابل تتمدد الصلاة في حياة مسن متقاعد لتشغل يومه بالكامل، ومن عاش مع والد كبير أو شيخ هرم يدرك ذلك، فهو يستيقظ قبل صلاة الفجر، وينتظر طلوع الشمس؛ ليؤدي ركعتين، ثم يصلي الضحى في أول النهار، وما يكاد يرتاح قليلاً حتى يسأل عن أذان الظهر، وبعد قيلولة قصيرة يستيقظ للعصر، ويستقبل القبلة في آخر النهار في انتظار المغرب، وغالباً ما يؤذن للعشاء بعد فراغه من تناول وجبة العشاء.

تتمدد الصلاة، وتنكمش مع يوم المؤمن بحسب ظروف حياته مشكلة وظيفة رائعة للدفاع عن وقته من أن تمتد إليه أي أمور ضارة، ومن خبر حياة المسنين من غير المؤمنين يدرك صعوبة حالهم، عندما يتقاعدون، وتطول الأيام والليالي عليهم، وبخاصة إذا انفض عنهم البنون، ولم يكن لهم زوج يؤنس وحشتهم.

II الأسعار فلسفة حياة

obeikandl.com

obeikandl.com

الأسعار فلسفة حياة

كان المسافرون من مجتمعنا في الماضي القريب «قبل ثلاثين سنة» عندما يعودون - خاصة من البلدان الغربية- بانطباعاتهم ومشاهداتهم ، أكثر ما يثير دهشتهم عمران المدن ووسائل النقل والمخترعات، وكذلك طبيعة التعامل البشري، أما الآن فبدأت هذه الروايات تفقد بريقها؛ لأنه أصبح لدينا مثلما لديهم أو أفضل من المباني والطرق والأجهزة، وأصبح أكثر حديث العائدين عن الأسعار في البلدان الأوروبية، فأسعار السلع والخدمات في تلك البلدان هي صدمة لمن لم يسبق له السفر هناك مؤخراً ، والعائدون من السفر للمرة الأولى يبدؤون الحديث عن الأسعار باندهاش، ويضطرون أحياناً إلى طلب الشهادة من بعض المرافقين أو الاستعانة بفاتورة؛ لإثبات صدقهم، وينتهي غالباً هذا المجلس بحمد الله وشكره على ما أنعم علينا من رخص الأسعار وسهولة الحصول على السلع والخدمات.

شكر الله -عز وجل- واجب على كل حال، وليس من العقل إنكار أو تجاهل ما فوق المادة من أسباب لا نعلمها، وتصنف بأحيان كثيرة في خانة «البركة» إلا أنه مع تسليمنا بكل هذا لا بد أن نسأل أنفسنا عن الأسباب التي جعلت بلاداً رغيدة، مثل البلدان الأوروبية تصل فيها أسعار السلع والخدمات إلى هذا المستوى، وهذه ثلاثة أمثلة بسيطة:

obeikandl.com

الصنف	متوسط السعر على مدار العام "الرياض"	متوسط السعر على مدار العام "مدينة أوروبية"
علبة ماء صحة ٣٠٠ ملم	١ ريال	٧ ريالات
كيلو طماطم	٥ ريالات	٢٢ريالاً
مشوار ربع ساعة في سيارة أجرة	٢٠ريالاً	١٣٠ريالاً

تستطيع أن تستمر في القائمة دون اللجوء إلى الإحصاء، وتستطيع القول: إن أي سلعة أو خدمة في البلدان الأوروبية تقدم بخمسة أضعاف قيمتها في دول الخليج، ما الذي يجعل بلدان الأنهار والبحيرات تبيع للمستهلك المياه المعبأة بهذا السعر، والسؤال نفسه على بقية السلع؟ في رأيي أن هناك ثلاثة أسباب فلسفية تكمن وراء الموضوع:

الأول / الاستدامة: تفكر الشعوب المتحضرة في إدارة حياتها بطريقة مستدامة، بمعنى أنها تستهلك مصادرها وثرواتها الطبيعية بطريقة تكفل استدامتها، ومن ثم تضع لهذه الثروات أسعاراً (من خلال الضرائب المضافة أو تكلفة الحصول على المادة الخام) تكفل الاستهلاك الرشيد لها، وتضبط القوانين العامة مسألة الاستدامة، فأخشاب غابات السويد على سبيل المثال تدار بطريقة تكفل بقاءها واستدامتها، بحيث إن ما يقطع منها يعوض بنمو البديل.

ثانياً/ المساواة: تضع هذه الدول حدًّا أدنى للأجور ومستوى السكن بجعل تكلفة العنصر البشري في أي منتج (سلعة أو خدمة) مرتفعاً، سواء كان عامل بقالة أو نادلاً في مطعم، وفي مقابل ذلك تقوم العمالة الوافدة الرخيصة جدًّا بإنتاج وتسويق السلع والخدمات في الدول الخليجية.

وفيما يخص قطاع النقل بالذات تتنافس الدول الأوروبية على رفع نسبة استخدام النقل العام، وتطور من آلياته التي تدعم هذا التوجه، وقد حضرت مؤتمراً عن النقل العام في فلندا عام ٢٠٠٧م، فدهشت لحجم الجهود التي تبذل لدعم الناس

وتشجعهم على استخدام النقل العام، وقد وصل الأمر إلى أن أصبحت أزيد من ٨٠٪ من الرحلات اليومية في مدينة مثل باريس عن طريق النقل العام ومن الآليات المطورة ما وضعته مدينة لندن من حزام إلكتروني حول وسط لندن تدفع بموجبه السيارات التي تعبر هذا الحزام رسماً ماليًّا، ومما يثير الدهشة أن بعض البلديات الأوروبية الآن تتفاوض مع أصحاب مشروعات المباني بطريقة عكس ما يتم في بلداننا، حيث يسعى المطور لزيادة عدد المواقف، وتضغط البلدية في الاتجاه المعاكس رحمة بالناس والبيئة من سلطة السيارة الخاصة، وينظر هناك إلى النقل العام بوصفه أحد مظاهر المساواة، وهو بحق من أهمها فلا شيء يثير الشعور بالتكافؤ مثل استخدام وسيلة نقل عام؛ إذ السيارات الفخمة تستفز أحياناً ذوي الدخول المتدنية.

ثالثاً/ البيئة : صدم العالم الغربي بالآثار المدمرة للبيئة التي سببتها الثورة الصناعية، وفطن منذ عقود عدة إلى الأخطار الكبيرة التي تهدد هذا الكوكب من انبعاث الغازات واحتراق الوقود الأحفوري، ومنذ ذلك الوقت وحكومات تلك الدول تسن التشريعات، وتهتم بهذا الأمر على المستوى الوطني والدولي على الرغم من تمنع بعض تلك الحكومات مثل الولايات المتحدة الأمريكية من التوقيع على المعاهدات التي تحدّ من هذه الانبعاثات، وقد أصبحت البيئة أحد أكثر الشؤون العامة أهمية بالنسبة إلى العالم المتحضر، ودخلت الضرائب الموجهة للإصحاح البيئي في معظم المنتجات، ومن ثم رفعت تكاليف السلع والخدمات، ومما يثير الإعجاب أن قيمة التخلص الآمن من ثلاجة أو غسالة أو سيارة في اليابان تضاف مقدماً على ثمنها، بحيث تذهب هذه الأموال إلى الجهات المعنية بإدارة النفايات الصلبة.

وقد يلاحظ الزائر لهذه البلدان أن الناس تستهلك حاجتها فقط، ولا تبذر، ولا تعبث بالأطعمة أو تتسلى بقيادة السيارات، كما يحدث عندنا، إذاً فالأسعار فلسفة حياة.

obeikandl.com

obeikandl.com

السعادة

obeikandl.com

obeikandl.com

السعـادة

عندما لا تسير الأمور على ما يرام (خسارة مادية، فقدان عزيز، مشاكلات عائلية، فشل الأبناء دراسيًّا، تأخر ترقية...) فإن الحكماء المؤمنين يدركون أن هذه طبيعة الحياة، كـما خلقهـا الله تعالى وأن حكمـة الباري -عز وجـل- اقتضت أن تسـير الحياة الدنيا على هذه الشـاكلة، فقوانين إيجادها تضمنت: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ ولا يعلم الإنسان حتى الآن الصورة الكاملة لقانون الوجود العام، فقد يكون لهذا الكبد سبب عظيم، ونحن ندرك الآن أن الحياة كلما اقتربت من الكمال، اقتربت النهاية المتمثلة في رفض الحياة، كثير من المكتئبين والمنتحرين هم ممن أوشكت حياتهم على الكمال، ومن المثير للدهشـة أن الهندسـة الإقليدية ذات الخطوط المسـتقيمة في السطوح المستوية قد فشلت في التوافق مع شكل الكون، فبعد أن أبحر الإنسان، وطار في الفضاء، أدرك أن هندسـة إقليدس لا تستطيع شرح ظواهر الكون، وكذلك الرياضيات المتوافقة معها، فانهارت هذه الهندسـة فاسحة المجال لهندسـة فراغية تتعامل مع المنحنيات وجيوسية الأرض، ومـا كان محـالاً في هندسـة إقليـدس أصبح ممكنـاً، فالخطـان المتوازيان عند خط الاسـتواء يلتقيان في نقطة على القطب، واضطر العلماء لكي يحسـبوا المسـاحات والحجـوم التـي تقع على المنحنيـات وداخل الأسـطوانات وغيرها من الأشـكال إلى تطويـر حسـابات جديدة يسـمونها حسـابات (التفاضـل والتكامـل) والحكمة التي نريدها هنا هي أن الحياة على هذه الأرض لا تنسجم مع الخطوط المستقيمة.

سعد وسعيد ومسعود:

سـعد شـاب في الثامنة عشرة من عمره في القسـم العلمي في إحـدى الثانويات لديه حلم جميل يتلخص في الالتحاق بكلية الهندسـة في جامعة مرموقة والتخرج، ثم

التوظيـف في شركـة كبيرة، وعندها الزواج من فتاة يعرفها من الآن، وينتظر السـعادة الكاملة في شقة الزوجية.

بعد سـت سـنوات تقريباً حقق **سـعد** كل هذه الأهداف (الأحلام) ولكنه طور أهدافاً جديدة، يعتقد أن السعادة الحقيقية ستكون بعد إنجازها، فقد تأكد له أن تملك منـزل أمـر مهم، حيـث نغص عليه صاحب العمارة التي يسـكن بها حياتـه في المطالبة المسـتمرة بالإيجـار وكثرة تردده عـلى العمارة؛ لتفقدها، وكذلـك أدرك ضرورة وجود طفل يدخل البهجة على الزوجين، وأحس بأهمية الترقية في وظيفته، وبدت له السعادة في منتهى الوضوح عند تحقق هذه الأهداف وخلال ثلاث سـنوات من العمل الشاق والالتـزام الصـارم تحققت **لسـعد** هذه الأهداف، حيـث رزق بطفلـه الأول، وتمكن أيضاً من شراء منزل بالتقسـيط، فقد سـمحت ترقية مهمة حصل عليها برفع مستوى القسط الشهري الذي يستطيع دفعه، وبعد أن سكن في المنزل الجديد وبعد مرور وقت قصير استدرك أن السعادة تحتاج إلى إنهاء هذه الأقساط والإحساس بالتملك الكامل للبيت، وكذلك توفير بعض المال وطفل آخر يؤنس أخاه... إلخ.

لا بـد أن بإمكانـك عزيـزي القـارئ، أن تكمل سـيناريو هذه القصة ببسـاطة، ويمكنك أن تتوقع أن تستمر حياة **سعد** على هذا المنوال حتى وفاته.

أما **سـعيد** فهو رجل أعمال كبير مكافح منـذ طفولته حقق أهدافاً كبيرة في وقت قياسي، وبنى قصراً يسـكنه مـع أولاده على هيئة مجمع سـكني، وبحديقة كبيرة ولديه اسـتثمارات ناجحة وشركة يديرهـا بكفاءة، ويتمتع بمركـز اجتماعي مرموق وصحة بدنيـة جيدة. أحضرت له زوجته الشـاي في ذات مسـاء بحديقة القـصر، ومع تداول الحديـث لاحظت أنه على غير ما يرام، وبوصفها زوجة مخلصة وحنونة أمطرته بوابل من الأسـئلة عن صحته وعن تجارته، واستحلفته إن كان قد أصاب أحداً من الأولاد

أو الأقـارب مكـروه أو.. أو... فأقسـم لها بـالله أن لا شيء من هذا حصـل، وأن كل الأمور تسير على أحسن ما يرام، ولله الحمد، لكنه لا يعلم سبب هذا الشعور.

أما **مسـعود** فهو عاشـق الكمال يحب الترتيبات المسبقة والاسـتعداد لكل شيء، ولا يـترك للمصادفـة فراغـاً. متعتـه في سـفر الصيف، حيـث يشرع يخطـط للصيف المقبل بعد عودته من السـفر مباشرة، فحجوزات الطيران والفندق والسيارات مرتبة ومدفوعـة قبل أشـهر عدة من الموعـد وبطاقات الائتمان ثلاث مـن ثلاثة بنوك مختلفة ومعهـا بطاقات صرف، ويحمل باسـتمرار ملـف الرحلة بكل مسـتنداته ولديه قائمة (checklist) لمتطلبات السـفر يراجعها مرات عدة قبل موعد السـفر بأسابيع إلى آخر مـا يمكن توقعه من ترتيب وتحضـير. وفي الصيف الماضي وقبل مغادرة المنزل في اتجاه المطار، رنّ هاتفه الجوال، وكان المتصل شقيق زوجته الذي أخبره بأن والدة زوجته قد دخلت المستشفى بحالة طارئة، فقد تعرضت لجلطة في الدماغ. وقع الخبر على **مسعود** مثـل الصاعقة، فذهنيتـه مبرمجة على الترتيب والتخطيط واسـتكمال كل الاحتياجات لأي موضـوع، هـذا فـوق قلقه الحقيقـي والمبرر على والـدة زوجته، وكذلك شـعور زوجتـه وأبنائـه، تحول ذلك الصيف **لمسـعود** إلى تعاسـة كبـيرة، وانهـارت الترتيبات وأحلام (أوهام) السعادة.

سـعد وسـعيد ومسـعود أمثلة تتكرر كثيراً في كل مجتمع، بل نماذج تكاد تسـتأثر بالنسبة الكبرى من البشر الذين يلهثون وراء السعادة، ولا ينالونها. سنعود إليهم بعد محاولة التعرف إلى السعادة.

سـبق أن أدرك حكـماء البشر صعوبـة الاصطلاح على تعريفـات لمفاهيم كبيرة، مثل السعادة.

وقد استخدم سقراط المحاورة والاستنطاق؛ لشرح هذه الحقيقة، فمفاهيم مثل العدالة والفضيلة والشجاعة يصعب وضع تعريف لها.

obeikandl.com

يعرف سقراط السعادة بالآتي:

«مـا أرقى خير يمكن أن يبلغه المرء بجهده؟ يتفق عامة الناس وصفوتهم على أنه السـعادة، ولكنهم يختلفون في تحديد كنهه».

- الأخلاق النيقوماخية، الكتاب الأول، الفصل الرابع -

واعترف إعلان الاستقلال الأمريكي بحصة كل إنسان في السعادة:

«نحـن نؤمن بأن هذه الحقائـق بينة بذاتها: إن كل بنـي البشر قد خلقـوا سواسـية، وإن خالقهم قد حباهم بحقوق لا يجوز انتزاعها منهم، منها الحق في الحياة، والحرية، والجد في طلب السعادة».

تتسـاءل الدكتورة كرسـتين نصار في كتابها (كيف تؤكد ذاتك؟) عن أهمية السعادة ما هي؟ وكيف نبلغها؟ وتقول في معرض إجابتها:

«إن كل شـعب قـد قـدم مفهومـه عنـه عـبر الأجيـال المتعاقبـة، حيـث تـم التحـدث عـن شـعور دائـم مـن الفـرد بأنـه (عـلى مـا يـرام) أو أنـه (في غايـة الرضـا) إنـما تبقـى السـعادة بمنزلـة تجربـة شـخصية يصعـب تحديدهـا».

وتسترسل الدكتورة كرستين، فتؤكد:

«إنـه نـادراً ما تمحـورت البحـوث العلمية حول السـؤال عن السعادة بشـكل مباشر، إذ تم تناول موضوعـات، مثـل المـرض وعـدم الارتيـاح والمشـكلات الإنسـانية، وقلة هـي البحوث التي تمحورت حول السعادة بوصفها موضوعاً».

obeikandl.com

ويؤيد وجهة نظرها هذه الدكتور مايكل أرجايل في كتابه «سيكولوجية السعادة»:

«حيث يقرر أن معظم الدراسات السيكولوجية في ميدان الانفعالات وجهت اهتمامها إلى البحث في حالات الاكتئاب والقلق، وغيرهما من الانفعالات السلبية».

ويعقب الدكتور مايكل بقوله:

«نحن نعلم الآن أن جعل الناس سعداء يتضمن عمليات مختلفة لا تجعلهم يشعرون بالسعادة».

إذاً، ما السعادة؟

أرجو أن يتأمل القارئ الكريم هذه الاستشهادات التي هي في نظري لا تحتاج إلى تعليق:

١. **(السعادة مسألة تفكير)**. المعالج الألماني أرهارد فريتاج في كتابه «العقل الباطن»
٢. **(الحق أن هناك كثيراً من الأدلة على أن تأثير الدخل في السعادة في تناقص).**
٣. **(المال لا يجعل الناس سعداء، أو هو على أي حال ذو تأثير محدود أقل بكثير من تأثير العلاقات الاجتماعية).**
٤. **(تُعدّ العلاقات الاجتماعية واحداً من أهم مصادر السعادة والصحة والتخفف من العناء).** «مايكل أرجايل سيكولوجية السعادة».
٥. **(خفِّف سرعتك؛ فالسعادة تحاول اللحاق بك).** «فيلسوف حكيم».

نعود إلى **سعد وسعيد ومسعود**، بإمكاننا أن نتعرف إلى الأوهام التي وقعوا فيها في سعيهم لتحقيق السعادة. **سعد** توهم أن السعادة محطة، فبدأ يتخيل هذه المحطة،

ويسـعى بكل جد للوصول إليها، ونجح في كل مـرة في الوصول إلى المحطة المتخيلة، ولكنه لا يجد السـعادة عندها، بل تترامى له السـعادة في محطة بعيدة أخرى على مسافة ثلاث أو خمس سـنوات، وظل يلهث وراءها دون أن يسـتمتع بالسعادة، هنا لا بد أن نمسك **بسعد** وأمثاله لنقول لهم:

القاعدة الأولى: «السعادة ليست محطة»

سـعيد توهم السعادة في الأشـياء الخارجية، فبنى منزل الأحلام، وطور تجارته، ونظم اسـتثماراته، وعمل على تربية أبنائه وضمان مستقبلهم، غير أنه يشعر على الرغم مـن كل ذلـك باكتئـاب، وتنتابه موجات تعاسـة كبيرة، هنا لا بـد أن نصحح مفهوم **سـعيد** ومـن على شـاكلته بالقاعدة الثانية المتعلقة بالسـعادة، وهي أنـه على الرغم من أهمية توافر عناصر خارجية لتحقيق السعادة، لكن «السعادة تنبع من الداخل أكثر من مؤثرات من الخارج».

يقـول العالم الروحاني الألمـاني أرهارد فريتاج في كتابه (العقل الباطن) الذي بيع منه أكثر من ٥ , ٤ ملايين نسخة:

> **«الشـخص الذي يعاني المشـكلات يسـتهلك... أكثـر بكثـير من الشـخص الـذي يتحلى بشـعور طيب حيال نفسه».**

ويضيف:

> **«إذا كنـت ترغـب في إدخال بعض التحسـينات عـلى نمط حياتك، فيجب عليك عندئذ أن تدرك أنك حتى هذه اللحظة لم تستخدم طاقتك الخاصة بأفـكارك مـن أجـل منفعتـك الخاصة والأشـياء المرتبطة بالمال لن تجدي فتيلاً في هذا الشأن مطلقاً»**

obeikandl.com

القاعدة الثانية: «السعادة تنبع من الداخل، أكثر من مؤثرات من الخارج».

أمـا **مسـعود** صاحب الترتيبـات فتوهم إمكانية السـيطرة عـلى كل الظروف عن طريق الترتيب والتخطيط، ومع يقيننا بضرورة التخطيط والاسـتعداد لكل أمر، لكن ذهنية الإنسـان لا بد أن تكون مسـتعدة للطوارئ، وما نسميه في اصطلاحنا الشرعي (القدر) وألا يتسبب حدث مفاجئ في شل قدرتنا على التفكير، ويسلبنا توازننا، ومن الأفضل **لمسعود**، ومن هم على شاكلته أن يعرفوا أن:

القاعدة الثالثة: «استدامة السعادة أمر محال».

فظروف الحياة أكبر بكثير من أن نسـتطيع السـيطرة عليها، ولم تصمم هذه الحياة لتكمل، بل إن قانون إيجادها كما هي سـنة الخالـق -عز وجل- أن تكون ناقصة، وبالمفارقـة فحياة الناس وسـيلة إيضـاح تثبت أنه كلما اقتربت ظـروف الحياة من الكـمال اقترب الإنسـان من التعاسـة الكبرى، بل أشرف عـلى الانهيار المتمثل في الانتحـار، ورفض الحيـاة مطلقاً. إذا لم تكن السـعادة محطة، ولم نسـتطع توفيرها بتهيئة الظروف المساعدة، ولا يمكن استدامتها، فما السعادة؟!

السـعادة من وجهة نظري رحلة على طريق كثير المنعطفات نحو غاية نهائية مسـتقرة، وفي الطريق محطات لاستراحات قصيرة؛ للتزود باحتياجات الرحلة.

القاعدة الرابعة: «السعادة غير قابلة للتخزين».

ومادمنـا قد اقترحنا مجموعة من القواعد السـلبية عن السـعادة، فلا بد أن نطرح بعـض القواعـد الإيجابيـة، وكما مر بنا في الحكمـة اليونانية والدسـتور الأمريكي وكثير من تراث الحكمة العالمي لا بد أن نقرر مع هؤلاء:

obeikandi.com

القاعدة الأولى: «السعادة حق مشروع لكل إنسان».

وتدل كثير من البحوث والمشاهدات وتجارب الإنسان الشخصية أنه لا يوجد شروط مسبقة للسعادة، فلا يوجد حد أدنى من المال ليكون الإنسان سعيداً، ولا من الصحة، ولا من المكانة الاجتماعية، ولا من أي شيء من كماليات الحياة، وهنا يمكننا أن نقترح:

القاعدة الثانية: «بلوغ السعادة أمر ممكن لكل إنسان».

وقد تعرضت كثير من الدراسات السيكولوجية إلى مسؤولية التفكير عن الشعور، فما زال علماء النفس يكررون مقولة: (ما تفكر فيه تشعر به) ومن هنا نردد ما استشهدنا به من قول المعالج الألماني أرهارد فريتاج:

القاعدة الثالثة: «السعادة مسألة تفكير».

حياتك صفقة:

في كتاب جميل بعنوان: (تفكير الأنظمة) ينصحنا كارلسون أن ننظر إلى الأمور بوصفها معادلة شاملة، ولا نقرؤها بمفردها، إن حياة الإنسان هي أقرب إلى معادلة كبيرة، متغيراتها كثيرة جدًّا، وإذا ركز الإنسان نظره إلى زاوية واحدة أو مجموعة من الزوايا فقط، قد يزدري نعمة الله عليه، أو ربما يحس بالطغيان والفخر.

والنظر بعقلانية إلى الحياة يتطلب النظر إليها بوصفها صفقة شاملة، فقد وهب الله كل إنسان حياة لا تشبه حياة أي إنسان آخر، فكل مخلوق بشري هو إنسان متفرد، ولا يمكن مقارنته بغيره إطلاقاً جسداً وروحاً وعلاقات.

حياتك تشبه بصمتك المتفردة التي لا تشبه بصمة أخرى.

obeikandl.com

خلاصة الخلاصات

obeikandl.com

obeikandl.com

خلاصة الخلاصات

تنبع السعادة المشبعة بالهناء الحقيقي والسلم الداخلي والطمأنينة واليقين من وجهة نظري من ثلاثة أصول:

الأصل الأول: الإيمان بالله الحي القيوم المدبر، ففي النفس البشرية، قلق لا يسكنه إلا الإيمان بالله، وخوف لا يدفعه إلا الإيمان بالله، وشك لا يزيله إلا الإيمان بالله.

الأصل الثاني: التقليل المستمر من شأن الدنيا والتخفف من كمالياتها وترفها، والسبب هنا بسيط، حيث إنه من المعروف أن ظروف الحياة أصعب بكثير وأكثر بكثير من أن يستطيع أي إنسان أن يتحكم فيها، ويهيمن عليها، فالأثرياء والقادة وزعماء العالم يمرضون، ويفقدون عزيزاً، ويتعرضون لصعوبات مستمرة، ومنغصات الحياة أكبر بكثير من أن تسد منافذها، وكلما أسرف الإنسان في الترف فتح أبواباً جديدة للمنغصات، ومن ثم فإن التقليل المستمر من شأن هذه الدنيا سيقود إلى سعادة أكبر، ويوفر حماية أقوى من التعاسة التي هي نقيض السعادة.

والمفارقة هنا أنك كلما وجهت جهداً أكبر لهذه الدنيا (المقصود هنا انشغال القلب) كان استمتاعك بها أقل، قد تحصل على المزيد من الممتلكات والمزيد من الإنجازات، غير أن درجة السعادة ستكون أقل.

الأصل الثالث: العمل الحثيث، من أجل نفسك ومن تعول، ومن أجل تحقيق النفع العام، فقد اقتضت حكمة الباري -عز وجل- أن يكون الكمال في الحركة،

obeikandl.com

وليـس في السـكون، فالحركـة مصـدر مهم جدًّا للسـعادة وكثـير من المكتئبـين قليلو الحركـة، وليس بالـضرورة أن تؤدي الحركة والعمل إلى نتائـج مادية مباشرة، ولكنها تقود في النهاية إلى سـعادة ورضا. يصعب التفكير في شـخص سعيد، وهو دون عمل مهما بلغ من الثراء، والعجيب أن جسـد الإنسـان يتعامل مع الحركة بالطريقة نفسها، فقـد ثبـت أن التمرين الجسـدي سـواء في رياضـة أو في عمل مثمر يـؤدي إلى إطلاق هرمون «الأدرينالين» الذي يؤثر في كيمياء المخ، ويقود إلى الانشراح.

والذي يبدو أن أحد أهم مصادر السـعادة في هذه الدنيا هو «التحول المسـتمر» والأمر نسبي، فلو أن عتّالاً عاد في نهاية اليوم، وقد ربح مئة ريال زيادة على أجره اليومي فسـيكون أكثر سـعادة من ملياردير عاد، وقد حقق صفقة ربما بملايين الريالات [1].

والجديـر بالملاحظة أن قانون الحياة في الدار الآخرة أو دار القرار يختلف، حيث ذكر عن أهل الجنة أنهم ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

والحقيقة أن الحاجة للتحول المستمر في هذه الدنيا لتحقيق السعادة يحمل مفارقة صعبة، فهو يعني ببسـاطة أنك تسـعى لتحقيق الشيء، وفوراً ترغب في التحول عنه، وهذا من دون شك ينفي صفة السعادة الحقيقية عن هذه الحياة.

إذاً، السعادة تساوي:

إيمان بالله + تقليل مستمر من قيمة الحياة الدنيا + عمل دؤوب

جعلك الله من السعداء في الدنيا والآخرة.

(١) لعل من يعرف حسابات التفاضل والتكامل في الرياضيات قد يشاركني الرأي أن مقدار السعادة عند أي لحظة في الحياة يشابه مقدار التفاضل عند أي نقطة في منحنى.

obeikandl.com